مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

مختارات قومية لمحمد عزة دروزة

محمد عزة دروزة

مدخل
محمّد عزّة دروزة :
تجربة كبيرة في العمل القوميّ العربيّ

ناجي علّوش (*)

محمد عزة دروزة، اسم معروف لدى قطاعات من المثقفين العرب. إلا أن المعرفة محدودة لأسباب عدة منها:

- إن سيرة الرجل لم تدرس، ولم تعمم. وإذا استثنينا كتاب حسين عمر حمادة المعنون: **محمد عزة دروزة**، والصادر قبل وفاة المناضل الكبير سنة ١٩٨٢[١]، فإننا لا نجد أثراً يعرّف بالرجل وسيرته وفكره. ثم إن كتاب عمر حسين حمادة لم يعمم، بسبب ظروف التوزيع التي يعيشها الوطن العربي، ومنذ بداية هذا العقد بخاصة.

أما مذكرات الرجل، فما زالت مخطوطة، ما عدا جزء واحد طبع ووزع في دمشق، على نطاق محدود أيضاً[٢].

- إن كتب محمد عزة دروزة، طبعت في مراحل مختلفة، بدءاً من سنة ١٩١١، كما سنرى. ولقد طبع بعضها ووزع أكثر من مرة، ولكن أكثرها اختفى من الأسواق، منذ فترة طويلة، ولم يعد طبعها. وما زال بعضها موجوداً في بعض الأسواق العربية، إلا أنه قليل[٣].

- إن دور الرجل السياسي ظل فعالاً حتى النكبة، ثم خفت، نتيجة النكبة والمرض من جهة، وتحولات الظروف العربية من جهة أخرى. ومع أن محمد عزة دروزة قدم أعمالاً مهمة، خلال المرحلة التالية (١٩٤٨ - ١٩٨٤)، إلا أن هذه الأعمال قدمها مناضل التزم بيته، في مرحلة استأثرت فيها قوى جديدة، لا تقيم اعتباراً لتراث أو تاريخ أو دور ثقافي.

- إن الحركة القومية التي تدافعت في الخمسينات، وحكمت في الستينات، لم تلتفت إلى الرواد، سيان منهم الذين استشهدوا سنة ١٩١٦، أو الذين ظلوا أحياء كعلي ناصر

(*) عضو مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية والأمين العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين سابقاً.

الدين[٤]، ومحمد عزة دروزة. وكانت طموحات الحركة القومية ومعاركها اليومية، تشغلها عن قادة المراحل السابقة وأفكارهم وكتبهم.

ولذلك كان محمد عزة دروزة معروفاً، وغير معروف، لأن اسمه لم يكن سهلاً أن يغيب، ولكن حقيقة دوره منذ سنة ١٩٠٨، في ميداني السياسة العملية والنظرية، كان غائباً، وأفكاره كانت محصورة في كتب لم يهتم أحد بتعميمها. ولولا جاذبيتها الخاصة، ومادتها التاريخية والسياسية، وحاجة القارىء العربي إلى مثلها، لما وصلت إلى أحد.

وفي السادس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٨٦، يمر عامان على وفاته، ومع ذلك، فإن مذكراته لم تطبع، وكتبه العديدة، سيان التي لم تطبع من قبل، أو التي طبعت ونفدت، لم تجد طريقها إلى القارىء. كما أن هذا الوطن العربي الكبير، بحكوماته ومنظماته وأحزابه، لم ينظم له احتفال تكريم، أو ينشىء لجنة لتخليد ذكراه، أو يطبع له كتاباً على أساس غير تجاري(*).

وهذه محاولة لتكريمه من جهة، وللتعريف بجانب مهم من فكره، وهو الجانب القومي الذي رصد له حياته. أما الجوانب الأخرى: اسهاماته السياسية، دوره في كتابة التاريخ العربي، دوره في كتابة تفسير القرآن[٥]، دوره التربوي... الخ، فنتركها لدارسي فكر الرجل الكبير، آملين أن يظهروا في هذا العصر المشغول بإشكالاته وبلبلاته.

- ١ -

لقد أعفانا الأستاذ محمد عزة دروزة عناء البحث في سيرته، ذلك أنه دوّن هذه السيرة في المذكرات، وقدم خلاصة سيرته ومؤلفاته بشكل مختصر لمن لا يجد وقتاً لقراءة المذكرات.

ولما كان الرجل مؤرخاً، فقد قدم للباحثين مادة مهمة تساعدهم في أبحاثهم، وتغنيهم عن كثير من المقابلات والمراجعات.

ولسوف نعتمد أساساً على الخلاصة التي أعدّها، والمذكرات التي تركها، لأن الهدف من هذه الدراسة، ليس سيرته، ولا مؤلفاته، بل دوره القومي. وهذا هو الجانب الذي سنتوسع فيه. أما سيرته ومؤلفاته، فسوف نقدمها بإيجاز كبير، حتى لا تطغى على الجانب الذي قررنا أن ندرسه في تقديم مختاراته القومية.

١ ـ سيرته

ولد الأستاذ محمد عزة دروزة ليلة السبت الحادي عشر من شوال، سنة ١٣٠٥ هـ، أي أواخر حزيران/يونيو، وأوائل تموز/يوليو سنة ١٨٨٧ م في مدينة نابلس في فلسطين(**). ووالده

(*) أصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ملفاً خاصاً بعنوان: «المؤرخ العربي محمد عزة دروزة،» في: **المجلة العربية للثقافة**، السنة ٦، العدد ١٠ (آذار/ مارس ١٩٨٦).

(**) يبدو أن خطأ ورد في اليوم أو التاريخ. لأن الحادي عشر من شوال يوم اثنين، وليس يوم سبت، وهو يوم =

عبد الهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة، من أسرة تعود إلى عشيرة الفريحات بكفر نجة من لواء عجلون. أما والدته، فهي مسعودة بنت بدوي بن إبراهيم دروزة. وقد نزحت الأسرة إلى نابلس في القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري. وكان والده، يتعاطى تجارة الأقمشة، كما كان جده كذلك، وكان لوالده محل في خان التجار. ويروى المُترجم له أنه اطلع على وثيقة تصف أحد أجداده، خضر بك دروزة، بأنه فخر التجار. وتعود الوثيقة إلى سنة ١١٧٠ هـ. أما لقب دروزة، فيرجّح أنه لحق بالعائلة لامتهانها الخياطة. أما عدد أفراد الأسرة فبلغ سنة ١٩٨١، نحو ستمائة نسمة، موزعين بين نابلس وعمان ودمشق والعراق والسعودية والمهجر.

بدأ الأستاذ محمد عزة دروزة دراسته في مدرسة الشيخ محمد زعيتر الإبتدائية الحكومية، أو شبه الحكومية، من سنة ١٨٩٥ حتى سنة ١٨٩٨. وكان يمضي الصيف في كُتّاب الشيخ إبراهيم الدرويش، حين تعطل المدرسة التي كان فيها. وفي سنة ١٨٩٨ دخل المدرسة الرشيدية، وتخرج منها سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٢ م، وكان منذ السنة الثالثة الأول في صفه، مع أن رفيق التميمي نازعه في السنة الأخيرة على المرتبة. إلا أن والد رفيق أرسله ليدرس مع اخوته في الآستانة، فحافظ محمد عزة دروزة على مرتبته، ذلك أن ظروف والده المالية، لم تسمح بإرساله إلى الآستانة، أو إلى أي مكان آخر لإتمام دراسته، ولذلك بدأ العمل، وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة.

بدأ حياته العملية في دائرة البرق والبريد العثمانية، فتعلم بعد تخرجه من الثانوية الضرب على آلة البرقيات واستقبالها وأعمال البريد الأخرى. وعُيِّن، منذ سنة ١٩٠٦ في دائرة البرق والبريد، وتنقل في أماكن مختلفة من بلاد الشام، حتى انتهى به الأمر سكرتيراً لديوان المديرية العامة في بيروت، حتى سقوط السلطنة العثمانية، وعندما رحلت الإدارة العثمانية عن بلاد الشام، تنقّل محمد عزة دروزة بين بيروت ودمشق وعمان ونابلس. ولكنه لم يعمل إلا فترة قصيرة كاتباً في ديوان الأمير عبد الله سنة ١٩٢٠. وأصبح سنة ١٩٢١ مديراً لمدرسة النجاح في نابلس، وظل كذلك، حتى سنة ١٩٢٦. ثم انتقل مديراً لأوقاف نابلس (١٩٢٨ ـ ١٩٣٢)، ثم عين مديراً عاماً للأوقاف الإسلامية (١٩٣٢ ـ خريف ١٩٣٧). وفي خريف ١٩٣٧ استولت الإدارة البريطانية المحتلة على إدارة الأوقاف، وأبعدت العاملين فيها، من العاملين في الحركة الوطنية. ولم يعد الأستاذ محمد عزة دروزة بعد ذلك إلى الوظيفة.

إلا أن الانقطاع عن الدراسة، والاضطرار للعمل لم يصرف الرجل عن دوره الوطني، ولا عن متابعة الدراسة، ومحاولة الاضطلاع بدور سياسي ثقافي. ولقد امتزجت هنا حياته السياسية بحياته الثقافية، فكان مؤرخاً وسياسياً ومحرضاً ومؤلفاً.

= الثاني من تموز/ يوليو. وعليه فقد يكون ميلاده يوم الحادي عشر ليلة الأحد ـ صباح الاثنين، أو يوم العاشر من شوال، مساء السبت صباح الأحد. انظر: محمد مختار باشا، **كتاب التوفيقات الإلهية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية**، دراسة وتحقيق محمد عمارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، مج ٢، ص ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥.

بدأ الأستاذ محمد عزة دروزة نشاطه السياسي بالانضمام إلى نادي جمعية الاتحاد والترقي، وكان هذا النادي واحداً من نواد عدة، أسست بعد إعلان الدستور، سنة ١٩٠٨، في العاصمة، وكل مدن السلطنة. وقد أسهم سنة ١٩٠٩ بتأسيس فرع لحزب الحرية والائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقي: واختير أمين سر لهذا الفرع. كما أسهم سنة ١٩١١ في إنشاء الجمعية العلمية العربية، وهدفها إنشاء مدارس عربية تعلّم باللغة العربية، لأن مدارس السلطنة كانت تعلم العربية بالتركية[٦]؛ وتعاون مع جمعية بيروت الإصلاحية، حين أنشئت سنة ١٩١٢. كما تعاطف مع العاملين من أجل عقد المؤتمر العربي الأول، في باريس، سنة ١٩١٣[٧].

وفي سنة ١٩١٤ عمل على تكوين فرع لحزب اللامركزية، مع نفر من رجال نابلس القوميين، إلا أن إعلان الدولة حالة الطوارىء، جمّد نشاط الفرع عملياً[٨].

وفي سنة ١٩١٦، التقى دروزة بالدكتور أحمد قدري في عوجة الحفير، وهناك انضم إلى حزب العربية الفتاة[٩].

وما لبثت العربية الفتاة ان قررت توسيع إطار عضويتها، فأنشأت حزب الاستقلال سنة ١٩١٩، وكان الأستاذ دروزة من مؤسسيه.

وفي منتصف تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩١٨ انتقل الأستاذ محمد عزة دروزة إلى فلسطين، بعد أن اضطر مندوب الملك فيصل للانسحاب من لبنان، تحت الضغط الفرنسي. وكان مشروع الوطن القومي الصهيوني، قد أخذ يشغل الجماهير في فلسطين، بعد الاحتلال البريطاني لها، فأسهم الأستاذ دروزة مع رجال نابلس، بتكوين الجمعية الإسلامية ـ المسيحية، وانتخب سكرتيراً لها. وحين عقد أول مؤتمر عربي وطني في فلسطين، أوائل كانون الثاني / يناير سنة ١٩١٩، انتخب الأستاذ دروزة سكرتيراً له[١٠].

وحين انعقد المؤتمر السوري، (أواخر حزيران /يونيو ـ أوائل تموز/يوليو ١٩١٩)، حضره محمد عزة دروزة ضمن ممثلي نابلس، واختير سكرتيراً له. ثم ما لبث المؤتمر أن تحول إلى مجلس تأسيسي، واختار لجنة لوضع الدستور، فانتخبت دروزة سكرتيراً لها. وقد وضعت اللجنة مشروع الدستور المذكور[١١].

وفي دمشق، ومع الدعوة لانعقاد المؤتمر السوري، التقى دروزة برجال العربية الفتاة مجدداً، وكانوا القوة الرئيسية في حكومة فيصل. ولقد انتخب عضواً في هيئتها المركزية، ثم سكرتيراً لها. وكان بحكم موقعه هذا، على صلة بالقوى العاملة على إزعاج الفرنسيين في شمال سوريا وسواحلها، وإزعاج البريطانيين في العراق[١٢].

وفي هذه الأثناء اتفق الأستاذ دروزة مع بعض رفاقه، على إنشاء الجمعية العربية الفلسطينية واختير سكرتيراً لها، من أجل التهيئة للنضال في سبيل فلسطين في كل المجالات، كما شارك في تأسيس جمعية فتى فلسطين. وكانت هذه جمعية سرية هدفها القيام بعمليات مسلحة.

وحين احتلت القوات الفرنسية أقضية البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا التابعة للإدارة السورية، تألفت لجنة وطنية عامة، حيث كان له دور مهم فيها.

وبعد سقوط الحكم الفيصلي في ٢٣/٧/١٩٢٠، غادر إلى فلسطين، وما لبثت المحاكم الفرنسية أن حكمت عليه بالإعدام، مع من أصدرت أحكاماً بحقهم[١٣].

فعاد الأستاذ دروزة إلى سكرتيرية اللجنة الإسلامية ـ المسيحية التي صار اسمها الجمعية العربية الوطنية، وظل سكرتيراً لها حتى سنة ١٩٣٢، إضافة إلى أعماله الأخرى.

وفي فلسطين انغمس في النشاط السياسي العام، فشارك في المؤتمرات الفلسطينية، وكان عضواً في لجانها التنفيذية ما بين ١٩٢١ ـ ١٩٣٢، ولذلك أتهم وحوكم أكثر من مرة.

وقامت سنة ١٩٢٨ جمعية باسم جمعية الشبان المسلمين في نابلس، فانتخب رئيساً لها، واختير سنة ١٩٣١ عضواً في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامي، ثم عضواً مؤسساً فيه، وسكرتيراً أولاً له[١٤].

واتفق الأستاذ دروزة، مع رفاقه رجال الحركة العربية الذين توافدوا لحضور المؤتمر الإسلامي، على عقد مؤتمر قومي عربي يجدد نشاط الحركة القومية، ويضع لها ميثاقاً. وقد عقد المؤتمر في القدس، في منتصف كانون الأول/ ديسمبر، على هامش المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٣١، واختار لجنة تحضيرية لمؤتمر قومي عام، لم يعقد بسبب وفاة الملك فيصل، وظروف الحركة القومية آنذاك[١٥].

وفي سنة ١٩٣٢ أسهم في إنشاء حزب الاستقلال في فلسطين الذي رفع شعار مقاومة الانكليز، باعتبارهم أصل الداء. وكان عضواً في لجنة الحزب التنفيذية، حيث اشترك في صياغة بيانات الحزب التعبوية، وفي التظاهرات التي قامت سنة ١٩٣٣، فشج رأسه في تظاهرات يافا، وصدر عليه حكم لمدة عشرة أشهر، لكنه خرج بكفالة هو وعدد من زملائه، وحين اعتقل عوني عبد الهادي الأمين العام للحزب، حل محمد عزة دروزة مكانه لفترة[١٦].

وحين أعلن الإضراب الكبير سنة ١٩٣٦، أسهم محمد عزة دروزة في العمل من أجل الوحدة الوطنية، فانبثقت اللجنة العربية العليا التي كانت تضم كل الأحزاب والوجاهات تقريباً. وصار الأستاذ دروزة عضواً فيها، وسكرتيراً لها، عند اعتقال عوني عبد الهادي الأمين العام لحزب الاستقلال، وسكرتير اللجنة[١٧].

وكان من نتيجة تعاظم المد الوطني، ودور الأستاذ محمد عزة دروزة فيه، أن اعتقلته السلطات البريطانية، مع كثير من الوطنيين، مدة ثلاثة أشهر.

زار بغداد والرياض، مع وفد لشرح السياسة البريطانية، وإفهام العاصمتين سبب مقاطعة اللجنة العربية للجنة الملكية البريطانية[١٨]. ثم شارك في مؤتمر بلودان، سنة ١٩٣٧، مندوباً عن اللجنة العربية العليا، فاختير سكرتيراً عاماً له[١٩]. وكان من قرارات المؤتمر إنشاء لجنة

للدفاع عن فلسطين في العراق، فذهب الأستاذ دروزة للمشاركة في إنشائها. وفي هذه الأثناء انفجرت الثورة في فلسطين، فاتخذت السلطات البريطانية قرارات عزلت بموجبها رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والأستاذ محمد عزة دروزة، واعتقلت أعضاء اللجنة العربية العليا الموجودين في فلسطين، ومنعت أعضاء اللجنة الذين في الخارج من العودة.

وحين تمكن الحاج أمين الحسيني من مغادرة فلسطين إلى لبنان، التقى به الأستاذ محمد عزة دروزة، واتفق معه على تسلّم سكرتارية اللجنة المركزية للجهاد في سوريا، ومهمتها «إدارة وتموين وتمويل حركة الثورة» من دمشق.

وفي حزيران/يونيو، سنة ١٩٣٩، اعتقله الفرنسيون في دمشق وحكموا عليه بالحبس لمدة خمس سنوات، وبدفع غرامة خمسة آلاف فرنك، ولم يفرج عنه إلا أوائل سنة ١٩٤١، اثر هزيمة فرنسا. فغادر إلى تركيا، خوفاً من أن يقع في أيدي القوات البريطانية التي غزت سوريا. ولم تتركه السلطات البريطانية هناك، فلاحقته، حتى اضطرت السلطات التركية لنفيه إلى الأناضول.

وعاد الأستاذ دروزة إلى سوريا، بعد استقلالها، سنة ١٩٤٥، وكانت قوة بريطانية في انتظاره بمحطة حلب، وظلت المخابرات البريطانية تراقبه ، وهو في دمشق.

وأعيد سنة ١٩٤٦ تكوين اللجنة العربية العليا، باسم الهيئة العربية العليا، واختير عضواً فيها. وكان يمثل الهيئة العليا في اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، ولدى حكومتي سوريا ولبنان. ولكنه ما لبث أن استقال من الهيئة ، وان ظل مواظباً على نشاطاته في كل الميادين.

واشتد عليه المرض، خريف سنة ١٩٤٨، وأجريت له جراحة في المرارة. وأثّر ذلك فيه، فاعتكف في منزله. ولذلك لم يستطع أن يحضر المؤتمر الوطني الذي عقد في غزة، والذي أعلن قيام حكومة عموم فلسطين[٢٠].

ودعا، بعد قيام ثورة ٢٣ تموز/ يوليو، إلى إنشاء حزب، يتبنى الدعوة للوحدة العربية، فلم يلق تجاوباً.

وحين انطلقت المقاومة المسلحة سنة ١٩٦٥، أسهم في تكوين جمعية رعاية أسر الشهداء ومجاهدي فلسطين.

٢ ـ مؤلفاته

للأستاذ محمد عزة دروزة انتاج وفير ومتنوع. يمكن أن نصنفه إلى ثلاثة أصناف:

أ ـ الكتابات الصحفية

وهي كثيرة، بدأها بكتاباته في جريدة الحقيقة البيروتية التي أصدرها كمال عباس، عقب إعلان

الدستور[٢١]. ثم أسهم الأستاذ محمد عزة دروزة بتحرير جريدة الاخاء العثماني التي أصدرها في بيروت محمد شاكر الطيبي[٢٢].

وكان، وهو يدير مدرسة النجاح، يكتب مقالات اجتماعية وتربوية وأخلاقية، ينشرها في مجلة الكشاف في بيروت[٢٣]، ومجلتي، المرأة الجديدة[٢٤] والزهراء في القاهرة[٢٥].

وإلى جانب ذلك كان يكتب مقالات سياسية في صحف فلسطين، وبخاصة الجامعة العربية[٢٦] والعرب[٢٧].

وظل يكتب في الصحف العربية، حتى سنة ١٩٨٠، حين لم يعد بصره يسمح له بذلك، فأخذ يملي أحاديث أذاعية.

ولم يُشَرْ إلى كتاباته في الصحف حتى الآن، مع أنه جمع بعضها ونشره، في كتاب **في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية، ومن وحي النكبة**. وجمع بعضها ولم ينشره.

ب ـ الترجمات

ـ **رفائيل لامارتين**[٢٨]: ترجمه عن الإفرنسية ولم يطبع، لأن مترجماً آخر كان قد سبق إلى ترجمته وطبعه في لبنان.

ـ القسم النظري من دروس التربية لكو مبيره[٢٩]، وقد صدر منه سنة ١٩٢٧ ملحقاً لمجلة التربية التي كان ساطع الحصري يصدرها في بغداد، ثم صدر في كتاب مستقل.

ـ بواعث الحرب العالمية الأولى: وهو كتاب مترجم عن الافرنسية إلى التركية، وقد ترجمه عن التركية، خلال منفاه في تركيا. وطبع سنة ١٩٤٦، وصدر عن دار الكشاف ببيروت في ١٤٩ ص.

ـ تاريخ الدعوة الإسلامية لأرنولد توماس[٣٠]، ترجمه عن التركية وهو في تركيا، ولم يطبع، لأنه كان قد ترجم من قبل.

ـ نظام الاثينيين لأرسطو: ترجمه أيضاً عن التركية، وهو في تركيا ولم يطبع، لوجود ترجمة سابقة له (ترجمة طه حسين سنة ١٩٢١).

ج ـ كتب في التاريخ والتاريخ العربي

(١) كتب في التاريخ

ـ **دروس التاريخ المتوسط والحديث**: كتبه للصفوف الإبتدائية سنة ١٩٣٢. وقد أصدرته المطبعة السلفية بالقاهرة، ثم مكتبة عرفة بدمشق، كما طبعته مطابع دار الأيتام الإسلامية بالقدس.

- **دروس التاريخ القديم**: كتبه للصفوف الإبتدائية أيضاً، سنة ١٩٣٣، وصدرت طبعته الأولى عن المطبعة السلفية، ثم طبع مرتين في مطابع دار الأيتام الإسلامية في القدس، ودرس كسابقه في مدارس فلسطين والأردن الوطنية الخاصة.

- **تركية الحديثة**: كتبه خلال منفاه في تركيا، ويتضمن الكتاب عرضاً لحالة الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، والحركة الكمالية عسكرياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً. وقد صدر سنة ١٩٤٦ عن دار الكشاف في بيروت في ٣٥٥ ص.

(٢) كتب في التاريخ العربي والإسلامي

- **مختصر تاريخ العرب والإسلام**: ألفه سنة ١٩٢٣ في ثلاثة أجزاء ليكون كتاباً مدرسياً:

الأول: في تاريخ العرب قبل الإسلام وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين والأمويين.

الثاني: في تاريخ العرب في الأندلس والدولتين العباسية والفاطمية.

والثالث: في تاريخ الدول العربية والإسلامية إلى العصر الحاضر.

وقد طبعت الجزءين الأول والثاني المطبعة السلفية ثلاث مرات سنة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٨. أما الثالث فما زال مخطوطاً.

- **دروس التاريخ العربي**: من أقدم الأزمنة إلى الآن، كتبه سنة ١٩٣٢، طبع عشر طبعات حتى سنة ١٩٣٩. ودُرس في المدارس الوطنية بفلسطين وشرق الأردن ومدارس العراق.

- **عصر النبي وبيئته قبل البعثة**: كتبه، خلال اعتقاله في سجن المزة سنة ١٩٣٩. وقد أصدرته دار اليقظة سنة ١٩٤٦، ثم طبع مرة أخرى، سنة ١٩٦٤ في ٨٤٨ ص.

- **عروبة مصر قبل الإسلام وبعده**: كتبه سنة ١٩٦٠، وصدر في حلقتين، سنة ١٩٦٠ و ١٩٦١، عن لجنة التأليف والنشر القومية في الجمهورية العربية المتحدة، وفي سلسلة كتب قومية برقم ٨١ و٨٩. وأصدرته مجدداً المكتبة العصرية، سنة ١٩٦٣ في ٢٠٠ ص.

- **سيرة الرسول**: أصدرته سنة ١٩٤٩ المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة في جزءين، عدد صفحاتهما ٧١٠ ص، ثم أعادت طبعه دار احياء الكتب العربية في القاهرة، سنة ١٩٦٥ في جزءين صفحاتهما (٨٣٠): وطبع طبعة جديدة ثالثة سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م في مطابع الدوحة الحديثة على نفقة أمير قطر، بمناسبة المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية تكريماً للمؤلف، وكأحسن ما كتب في السيرة النبوية.

- **تاريخ الجنس العربي في مختلف الأدوار والأطوار والأقطار**: كتبه سنة ١٩٥٦، وصدر تباعاً عن المكتبة العصرية، ما بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ في ثمانية مجلدات. ولدى أسرة المؤلف مخطوطات لثلاثة مجلدات أخرى.

- **العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي**: صدر عن دار اليقظة سنة ١٩٥٩ - ١٩٦١ في ثلاثة مجلدات. وأعادت طبعه المكتبة العصرية في تسعة مجلدات حيث أضيف له الجزء التاسع عن إمارات جزيرة العرب.

د - كتب حول الإسلام

- **الدستور القرآني في شؤون الحياة**: ألفه عندما كان في سجن المزة سنة ١٩٣٩، مع الكتابين الأخيرين المشار إليهما. وقد أصدرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، سنة ١٩٥٦ في ٦٠٤ ص. ثم صدر في جزءين، بعد أن نقّحه المؤلف، وجمع بين القرآن والسنة، وصار عنوانه: الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة. وقد أصدرت الطبعة الثانية دار احياء الكتب العربية أيضاً.

- **التفسير الحديث**: كتبه خلال منفاه في تركيا. وقد أدخل عليه تنقيحات وتصحيحات، وصدر عن دار إحياء الكتب العربية في اثني عشر جزءاً، بلغت صفحاتها ٣٥٧٦ ص، ما بين ١٩٦١ - ١٩٦٣. وهناك طبعة جديدة، ستصدر عن المكتبة العصرية، في خمسة آلاف صفحة.

- **القرآن المجيد**: كتبه خلال منفاه في تركيا، ليكون مقدمة لكتاب التفسير، وأصدرته المكتبة العصرية.

- **القرآن واليهود**: كتبه سنة ١٩٤٩، وصدر عن مكتبة الحضارة الإسلامية سنة ١٩٤٩، وفي ١٦٨ ص.

- **القرآن والمرأة**: كتبه سنة ١٩٥٠، وأصدرته المكتبة العصرية في ٦٤ ص من القطع الصغير.

- **المرأة في القرآن والسنة**: وسع سنة ١٩٦٦ الكتاب السابق، وجمع فيه القرآن والسنة، وصدر عن المكتبة العصرية سنة ١٩٦٧ في ٢٦٠ ص. وأعيد صدوره سنة ١٩٨٥ عن دار الجليل بدمشق.

- **القرآن والضمان الاجتماعي**: كتبه سنة ١٩٥٠، وصدر سنة ١٩٥٠ عن المكتبة العصرية في ٣٤ ص.

- **الإسلام والإشتراكية**: كتبه سنة ١٩٦٦. وصدر سنة ١٩٦٨ عن المكتبة العصرية في ٢٥٠ ص.

- **القرآن والمبشرون**: أصدره المكتب الإسلامي في دمشق، سنة ١٩٧٢ في ٤٦٨ ص، وأعاد طبعه في بيروت سنة ١٩٧٩.

- **القرآن والملحدون**: وهو رد على كتاب **نقد الفكر الديني** لصادق جلال العظم. أصدره المكتب الإسلامي سنة ١٩٧٣ في ٤٣٠ ص. وأعادت نشره دار قتيبة في دمشق سنة ١٩٨٠.

- **الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث**: كتب من وحي حرب رمضان ١٩٧٣. وأصدرته دار اليقظة في دمشق، سنة ١٩٧٥ في ٤٣٢ ص.

- كتاب **القواعد القرآنية والنبوية في تنظيم الصلات بين المسلمين وغير المسلمين**، صدر سنة ١٩٨٢ عن دار الجليل.

هـ ـ كتب حول اليهود

- **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**: كتبه سنة ١٩٥٦. وأصدرته مطبعة ومكتبة مصر سنة ١٩٥٧ في ٣٣٤ ص. ثم أصدرته اللجنة القومية للتأليف والنشر في ثلاث حلقات سنة ١٩٦١. وقد نقحه المؤلف، وأدخل عليه رسالة القرآن واليهود، وصدر عن المكتبة العصرية سنة ١٩٦٩، بعنوان: «تاريخ بني إسرائيل واليهود وأحوالهم وأخلاقهم من أسفارهم ومن القرآن» في ٥٦٠ ص.

- **الجذور القديمة لسلوك وأخلاق وأحداث بني إسرائيل واليهود واستطراداً إلى الموقف الحاضر**: كتبه سنة ١٩٦٨، وصدر سنة ١٩٦٩ عن مكتبة أطلس في دمشق في ١٠٠ ص.

- **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث**: صدر في جزءين عن دار الكلمة في بيروت سنة ١٩٧٩ الأول في ٢٥٦ ص والثاني في ٢٩٠ ص.

و ـ كتب حول فلسطين

- **مأساة فلسطين**: كتبه سنة ١٩٥٩، وصدر عن دار اليقظة في دمشق، في ١٣٢ ص.

- **جهاد الفلسطينيين**: أصدرته الهيئة العربية العليا، سنة ١٩٦٠، في ١٠٦ ص.

- **قضية الغزوة الصهيونية**: أصدرتها مجلة الوعي الإسلامي في الكويت ملحقاً لها سنة ١٩٧٠ في ٧٠ ص.

- **في قضية فلسطين والوحدة العربية، ومن وحي النكبة ومعالجاتها**: تضم مجموعة من مقالاته حول القضية الفلسطينية، وهي المجموعة الأولى من مقالاته التي كتبت سنة ١٩٤٨. صدر عن المكتبة العصرية سنة ١٩٧٣ في ٥١٢ ص.

- **عبرة من تاريخ فلسطين القديم**: مقالات نشرت في صحف دمشق ١٩٧٥ ـ ١٩٧٧، أصدرتها المكتبة العصرية، سنة ١٩٧٨ في ١٢٠ ص.

- **صفحات مغلوطة ومهملة من تاريخ القضية الفلسطينية، وحركة المقاومة العربية فيها، وصلتها بالحركة القومية العربية**: وهو رد على كتاب د. أنيس صايغ (القضية الفلسطينية والقومية العربية) الذي نشره مركز الأبحاث سنة ١٩٦٦. أصدرته المكتبة العصرية، سنة ١٩٧٩ في ٧٦ ص.

- **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**: صدر في جزءين سنة ١٩٥١، عن المكتبة العصرية، وأعيد طبعه سنة ١٩٥٩. وكان هذا العمل جزء من كتاب **تاريخ الحركة العربية الحديثة**، ثم أفرد في كتاب مستقل.

ز - حول الحركة العربية الحديثة

- **حول الحركة العربية الحديثة**: انجزه خلال النفي في تركيا، وأصدرته المكتبة العصرية في ستة أجزاء، ١٩٥١ - ١٩٥٣.

- **مشاكل العالم العربي**: كتبه سنة ١٩٥١ للمشاركة في مسابقة أعلنت عنها الجامعة العربية. وأصدرت الكتاب دار اليقظة العربية في دمشق، سنة ١٩٥٢ في ٢٧٠ ص.

- **الوحدة العربية**: اشترك في مسابقة أعلنت عنها الجامعة العربية، سنة ١٩٥٤، فاعتذرت الجامعة عن الكتاب، فأصدره المكتب التجاري، سنة ١٩٥٨ في ٧٢١ ص.

- **نشأة الحركة العربية الحديثة**: قام المؤلف بتوسيع القسم الأول من كتاب **حول الحركة العربية الحديثة**، وأصدرت الكتاب المكتبة العصرية، سنة ١٩٧٢ في ٥١٦ ص.

هذه أعماله المطبوعة. ويبقى أن نشير إلى أنه كتب عدداً من المسرحيات التي مثلت في المدارس، ولم يطبع منها إلا وفود النعمان على كسرى أنو شروان التي كتبها رواية سنة ١٩١١، وعاد فحوّلها إلى مسرحية لتمثل في مدرسة النجاح، بعد عمله فيها. ثم أعيد طبعها سنة ١٩٨٤ في الأرض المحتلة. ثم هنالك مخطوطات كثيرة أشار إليها في النبذة التي كتبها عن حياته، وأشار لها أيضاً حسين عمر حمادة في المرجع الذي أشرنا إليه.

ويتضح من سيرته أنه انغمس في العمل الوطني، حتى خارت قواه، بعد النكبة. ولقد اضطلع بدور المعبىء والمنظم والقائد، وشارك في الحركة القومية بفعالية، كما شارك في النضال القومي في فلسطين. وأسهم، إلى جانب ذلك، بدور تربوي، من خلال مدرسة النجاح، وكتبه التي ترجمها وألفها.

وكانت مؤلفاته العديدة عطاء ثراً في ميادين نضاله المختلفة، أسهم من خلالها بوعي قومي وتاريخي، وشارك في بلورة خط سياسي قومي وتحريري، ودافع عن الإسلام وقيمه، وعن الوطن والشعب. ولقد ظل وفياً لقيمه، حتى مات، ولم يعرف عنه أنه ضعف، أو اختار الراحة والدعة، أو بحث عن غير القضية.

ولما كانت حياته ومؤلفاته بهذا الغنى، وكانت المختارات منصبة على دوره القومي، فإن القسم الثاني من المقدمة، سيتناول هذا الموضوع، دون القضايا الأخرى.

- ٢ -

نحن إذاً، أمام رجل، أعطى للحركة القومية نفسه، فشارك نظرياً، وشارك عملياً. كتب

وناضل، أرّخ وعمل، نظرّ وعبأ، وخاض النضال السري والعلني.

لقد بدأ حياته العملية صغيراً. فهو يحدثنا أنه بدأ يكتب في الحقيقة البيروتية، بعد إعلان الدستور، أي بعد سنة ١٩٠٨. ولقد نشر روايته **وفود النعمان على كسرى أنو شروان** سنة ١٩١١. ومنذ ذلك الحين، وهو يكتب. ولقد كتب، كما لم يكتب أي من زملائه رجال الحركة العربية الأولى. وإذا استثنينا منهم من أعدموا سنة ١٩١٦ كعمر حمد والعريسي والشهابي[٣١]، أو ماتوا صغاراً كالقاسمي[٣٢]، فإن إسهاماته في ميدان الكتابة التاريخية والسياسية، تفوق اسهامات كل زملائه الآخرين الذين شاركوا بالنشاط العملي اليومي مثله، أو الذين أسهموا في الكتابة أكثر مما أسهموا في النضال. ولذلك فإننا أمام رجل كبير، أعطى في ميدان الكتابة كثيراً. وهو هنا فذ بين أقرانه. وإذا كان عمره الطويل قد ساعده على العطاء أكثر في ميدان الكتابة، فإن جلده والتزامه بالقضية القومية، وابتعاده عن مطالب الحياة وملذاتها، قد أهّلته أيضاً لمثل هذا العطاء.

أما في النشاط العملي، فقد أعطى مثلاً مشابهاً، إذ إنه، ومنذ انغمس في العمل السياسي سنة ١٩١٨، برز دوره في كل النشاطات التي شارك فيها. ولم يحد من نشاطه التزامه بوظيفة مدير مدرسة النجاح، أو عمله في المجلس الإسلامي الأعلى.

ولقد كان معنياً بالتأصيل، كما كان معنياً بالإسهام في الحركة السياسية الراهنة. ولذلك حاول أن يؤسس مفاهيم وقيماً تربوية. ولو حاولنا أن نرصد كتاباته الأولى، لوجدناها تتجه اتجاهاً تربوياً أخلاقياً. ولذلك فإنه يشير إلى أولى كتاباته في صحيفة الحقيقة قائلاً: «وكان يتناول فيها شؤوناً متنوعة في الأخلاق والاجتماع والسياسة»[٣٣]. أما روايته الأولى: **وفود النعمان على كسرى أنو شروان**. فإنه يشير إليها قائلاً: «وكانت بسبيل تسجيل الوعي العربي القومي، وما أخذ يثور في صدور شباب العرب من المطامح القومية، والرغبة في النهضة العربية، وتبوأ المكانة اللائقة بهم كأصحاب أمجاد عريقة في تاريخ العرب والإسلام»[٣٤]. ولا تختلف حال روايته **السمسار** التي كتبها سنة ١٩١٣، عن حال روايته الأولى. وقد هدف هو، كما يقول، من الرواية: «إلى شرح أساليب اليهود، وإغراءاتهم، والتنبيه على خطر السماسرة الذين كانوا يساعدونهم على مآربهم»[٣٥].

ونجده في العقد التالي، وبعد سنة ١٩٢٠، معنياً بترجمة دراسة لكومبيره حول **دروس التربية**. كما نجده يكتب سنة ١٩٢٥ كتابه: **مختصر تاريخ العرب والإسلام** في ثلاثة أجزاء، ليكون كتاباً مدرسياً. ويتبع ذلك، سنة ١٩٣٢ بكتابه **دروس التاريخ العربي** سنة ١٩٣٢.

وكان خلال هذه المدة، يلقي في مدرسة النجاح كل أسبوع محاضرة، كما يقول «في الأخلاق والاجتماع»[٣٦]، طيلة خمس سنوات. وكان، كما يقول أيضاً «وأثناء عمله على رأس مدرسة النجاح» يكتب «مقالات عديدة اجتماعية وتربوية وأخلاقية، نشرت في مجلات الكشاف في بيروت، والمرأة الجديدة والزهراء في القاهرة»[٣٧].

ولذلك، كتب سنة ١٩٢٥ أيضاً كتابه: **مختصر تاريخ العرب والإسلام في ثلاثة أجزاء**

ثم كتب سنة ١٩٣٢ كتابه: **دروس التاريخ العربي**. وقد كتبهما، ليكونا كتابي تدريس. ولا يخفى من أسلوبهما أنه كان معنياً بتربية النشء، وأنه كان معنياً بتلقين النشء احترام أمتهم، والاعتزاز بأمجادها. ولكنه كان رجلاً مسلماً مؤمناً، وكان مقتنعاً بالعلاقة التي لا تنفصم بين العرب والإسلام، ولذلك لم يفصل بين العرب والإسلام، إلا قبل الإسلام. وهو ما سنعود إلى بحثه فيما بعد.

محمد عزة دروزة الراهن المعاصر، رجل مسكون بالتاريخ، وبدروس التاريخ. ولذلك فهو معني أن يؤسس في العرب وعياً تاريخياً. وأن يربط بين وجودهم الراهن، ووجودهم التاريخي. وعليه فهم ليسوا أبناء العرب الفاتحين فقط، إنهم سلالات الآكديين والكنعانيين والآشوريين والبابليين والمصريين القدماء... الخ، وهذه الأرض هي أرض هؤلاء الأقوام، ينساحون فيها، في مراحل التاريخ المختلفة، ويبنون الممالك والدول. وهذه اللغة العربية التي نكتبها ونتكلمها، هي من نسل لغات هذه الأقوام. ولأن محمد عزة دروزة مقتنع بذلك، كتب كتابه **تاريخ الجنس العربي**، ليقنع غير المقتنعين بهذه الحقيقة. ولم يكن أحد من القادة القوميين، أو المنظرين القوميين، قد عني بهذه القضية عنايته.

لقد اهتم، في تلك الفترة، ساطع الحصري بالتربية، وكرس حياته من أجلها[٣٨]. وكان الحصري يرى «أن الأمة كائن اجتماعي، يتصف بالحياة والشعور. حياة الأمة بلغتها وشعورها بتاريخها»[٣٩]. ولكن الحصري لم يكتب تاريخاً للأمة، قبل الإسلام وبعده، أما دروزة فقد فعل.

وإذا كان غير دروزة قد أشار إلى علاقة العرب بما يسمى «الشعوب السامية»، كما فعل زكي الأرسوزي، حين اعتبر الأمة العربية «ينبوع الشعوب السامية كافة»[٤٠]، فإننا نستطيع أن نؤكد أن دروزة هو الوحيد من المناضلين القوميين الذي قدم لنا دراسات تاريخية في ذلك.

وكان علي ناصر الدين قد أشار لموجات جزيرة العرب قبل الإسلام[٤١]. وأشار لذلك محمد فريد أبو حديد[٤٢]. ودرويش المقدادي[٤٣]. ولكن محمد عزة دروزة لم يكتف بالاشارات، بل تناول ذلك في كتابه **تاريخ الجنس العربي**، وفي كتب أخرى[٤٤].

ولقد وعي دروزة هذه الحقيقة، ولذلك راح يبحث عن مراجع أساسية في هذا المجال، فلم يجد إلا مرجعين عربيين مختصين في تناول الموضوع، أولهما: **العرب قبل الإسلام**» لجورجي زيدان[٤٥]. والثاني: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** لجواد علي[٤٦]. وهذان المرجعان ليسا للحصري أو غيره من قادة العمل القومي ومنظريه الرئيسيين.

ونستطيع أن نقول: إن دروزة، حاول أن يقدم لنا هذا التاريخ في تواصله، فكتب لنا **تاريخ الجنس العربي، والعرب والعروبة في حقبة التغلب التركي: وحول الحركة العربية الحديثة، ونشأة الحركة العربية الحديثة**. كما كتب الكتب العديدة الأخرى التي أشرنا إليها.

ولكن «وعيه التاريخي» لم يكن اتجاهاً إلى الماضي فقط، بل كان محاولة للبحث عن أساس مكين لمستقبل مشرق. وهكذا فالماضي عند دروزة أساس للحاضر، وقاعدة للمستقبل،

إنه ليس بحثاً عن آثار انقطعت صلتها بالحياة.

ولهذا لم يعد دروزة إلى الماضي، ضمن إطار مشروع لكتابة تاريخ مضى. ولم يكن يبحث في الماضي عن اكتشاف مجهول، إنما كان يفعل ذلك، وهو يعبىء من أجل مشروع قومي معاصر.

كانت مطامح الأمة تشغله، وآلامها ترهقه، وآمالها تحفزه، فطرح مشروعاً قومياً راهناً معاصراً، يستند إلى وعي تاريخي، ولم تشغله عظمة الماضي عن مطامح الحاضر، ولا آمال المستقبل.

ولقد اعتنى بالواقع الراهن، كما اعتنى بقضايا التاريخ، فكتب الجزء السادس من **حول الحركة العربية الحديثة**، وجعل له عنواناً فرعياً «فصول في حاضر العربية ومستقبلها ومشاكلها ومعالجاتها». ثم أعاد كتابته، وسماه **مشاكل العالم العربي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية**. ثم كتب كتاب **الوحدة العربية**، ليطرح مشروعاً قومياً معاصراً، يستند إلى وعيه التاريخي. وكتب الكثير من المقالات التي تتناول قضايا اجتماعية وسياسية راهنة.

ولعلنا لا نغالي، إذا قلنا، إن وعيه التاريخي، كان جزءاً أساسياً من مشروع معاصر، هو مشروعه القومي. وإذا كان قد غاص في التاريخ بحثاً عن الأصول، فإنما فعل ليؤسس مشروعه الراهن، وليوطد أركانه بالتاريخ. ولما كان موضوع وحدة الأمة شاغله الرئيسي، فقد ذهب يبحث عن أركانه، ومنها التاريخ.

ومن يقرأ كتب دروزة، يعرف أن الراهن عنده تاريخي، وإن الأمة كائن تاريخي، تتكون تاريخياً. وهو يرى أن وعي هذه العملية التاريخية ضروري للمشروع العربي المعاصر.

إلا أن الانغماس بالتاريخي، والانشغال بالراهن، لم يجعله يقبل دور المؤرخ والمنظر فقط، بل اختار إلى جانب ذلك، دور المناضل القومي. ولذلك اختار أن يكون عضو جمعية سرية كالعربية الفتاة، وأن يسهم في تأسيس حزب الاستقلال، وأن يشارك في المؤتمر السوري، ويخوض تجربة قيام الحكومة العربية في دمشق (١٩١٨ - ١٩٢٠) [٤٧]. وحين أحبط الهجوم الفرنسي هذه التجربة، عاد إلى فلسطين، ليخوض تجربة النضال فيها، ضد المشروع الصهيوني ـ البريطاني. وهناك شارك في تأسيس المؤتمرات الوطنية، وقيادة النضال الشعبي، حتى أصبح عضو اللجنة العربية العليا، ثم الهيئة العربية العليا. كما أسهم خلال هذه المرحلة في تأسيس تجربة سياسية متفردة هي حزب الاستقلال[٤٨].

ولكن نضاله في فلسطين لم يخرجه من المشروع القومي، ولذلك شارك في الدعوة لمؤتمر قومي سنة ١٩٣١، ودعا إلى تكوين حزب قومي، إثر قيام ثورة ٢٣ تموز/ يوليو. ثم عاد فأكد ذلك في كتابه عن **الوحدة العربية**[٤٩].

ولقد توقف عن النشاط العملي، بعد مرضه، سنة ١٩٤٨. إلا أن هذا لم يمنع قلمه من

الخوض في القضايا القومية، مذ ذاك حتى قبيل وفاته؛ بحيوية عالية. وأن يحث المعنيين على العمل للوحدة، وأن يدعو لتأسيس حزب قومي.

وقد عَرّضه هذا لمخاطر السجن والتشريد والقتل، من أيام العثمانيين إلى أيام الانتداب. فقد نجا من مشانق جمال باشا سنة (١٩١٥ ـ ١٩١٦). وحكمه الفرنسيون بالإعدام عند دخول دمشق سنة ١٩٢٠. وتعرض أكثر من مرة للموت في تظاهرات فلسطين[٥٠]، واتهم وحوكم أكثر من مرة. واعتقل سنة ١٩٣٩ في دمشق وحكم. ثم خرج من السجن، فاختار المنفى، كما بيّنا. وحين عاد، كانت الشرطة البريطانية في انتظاره بمحطة حلب.

ولقد ظل كل حياته السياسية، وحتى موته، متمسكاً بالأهداف القومية، ومنها تحرير فلسطين، ولم يضعف أو يهن، أو يتنازل عن خطه السياسي.

وحين انطلقت المقاومة المسلحة، سنة ١٩٦٥، أيدها، وساعدها بما يستطيع.

إنه واحد من الرجال القلائل من أبناء جيله الذين حفظوا شرف الالتزام القومي والسياسي، فلم يتحولوا لخدمة الأنظمة والطبقات الحاكمة التي خانت هذا الخط، ولم يتخلوا عن أهدافهم حتى يومهم الأخير. وعلى الرغم من المرض، فقد ظل يعطي عطاء ثراً حتى يوم وفاته.

- ٣ -

ومحمد عزة دروزة صاحب رؤية قومية للتاريخ العربي. والعرب، بالنسبة إليه لم يولدوا مع الإسلام، ولم يوجدوا به، بل وجدوا قبل الإسلام بآلاف السنين. ولذلك، فإن كتابه: **تاريخ الجنس العربي** محاولة لتأصيل هذه الحقيقة وتأكيدها.

ولذلك قسم الأستاذ دروزة التاريخ العربي إلى مرحلتين رئيستين:

الأولى: ما قبل العروبة الصريحة.

والثانية: العروبة الصريحة.

وإذا كانت الأولى تمتد امتداد حضارات وادي النيل والرافدين، فإن الثانية تبدأ قبل الإسلام بحوالى ألف عام.

وتقوم رؤية محمد عزة دروزة هذه على الأساسين التاليين:

١ ـ إن الأقوام التي سكنت الوطن العربي بحدوده الطبيعية كما سنقدمها، اعتماداً على تحديد دروزة الجغرافي، اقوام عربية. وهذه الأقوام تسكن الوطن العربي، منذ القديم. ومع أن دروزة لا ينفي فكرة وجود أقوام أخرى في هذه الأرض، فإنه يرجح غلبة الأقوام العربية[٥١].

ويعترض دروزة على تسمية هذه الأقوام بالساميين، أو الجنس السامي، ويرى أن تسميتها بالجنس العربي أصح[٥٢].

ويسند علاقات هذه الأقوام بعضها ببعض، بتأكيد وحدة «اللغات السامية»[٥٣]، ومنها اللغة المصرية القديمة[٥٤]. وهو يرى أن اللغات السامية لغة جماعة بشرية واحدة[٥٥].

إن دروزة يربط سكان الوطن العربي بهجرات الجزيرة العربية، مؤكداً ذلك في مواقع متعددة من كتبه. وهو يتبنى فكرة هجرة سكان وادي الرافدين إلى الجزيرة العربية بسبب الطوفان في كتابه **دروس التاريخ العربي**. ثم عودة هؤلاء إلى الهجرة شمالاً بسبب الجفاف[٥٦]. لكنه يعود فيطرح هذا الاحتمال، من بين احتمالات أخرى في كتابه **الجنس العربي**[٥٧].

وتسمية الجنس العربي، لا تعني عنده وحدة العرق أو الأصل السلالي. فهو يؤكد أن هذه الهجرات اختلطت بدماء من كان قبلها[٥٨]. وقد اتحد الطراء الشرقيون والغربيون مع العرب[٥٩]. وعلى الرغم من أنه يجعل وحدة الدم عاملاً من عوامل تكوّن الأمة[٦٠]. فإنه يعود فيؤكد: «ويظهر من كل ما تقدم كذلك، أننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط. وإنما نبنيها أيضاً على الأساس القومي المفهوم، والمعتبر الآن بصورة عامة، وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة. وإذا كنا أشرنا، إلى منبت العروبة الجنسية، ومهاجرها القديمة، أو إلى قدم التاريخ الذي انسبك في طياته سكان موطن العرب في قالب واحد، أو إلى شمول الدين الإسلامي لأكثرية هؤلاء السكان، فإننا فعلنا هذا بسبيل التدليل على قوة عناصر القضية العربية ومميزاتها»[٦١]. وهو ما نّبه إليه في مقدمة كتابه **الجنس العربي قائلاً**: «إننا حينما نقول «الجنس العربي» لا نقصد المعنى الفني الدقيق الذي يتميز به جنس بشري عن آخر بخصائص جسمية في الدرجة الأولى. مما كاد أن يكون غير قائم، منذ الأزمنة التاريخية المعروفة، بسبب ما حدث من هجرات الأمم وتمازجها»[٦٢].

إن هذه الوحدة التاريخية قبل الإسلام وبعده، يعطيها محمد عزة دروزة اهتماماً خاصاً، وجهداً كبيراً. ولما كانت مرحلة ما قبل الإسلام، قد أهملت، أو حظيت بإشارات عابرة، حتى في دراسات حديثة عن الهوية القومية[٦٣]، فإن جهد محمد عزة دروزة يأتي متفرداً في هذا المجال، لدى دراسة جهود المنظرين القوميين.

وبناء عليه فإن محمد عزة دروزة، يدرس وحدة تاريخ هذه الأقوام، ولا يقبل بالدراسات التي اختطها المستشرقون، والتي حرصت أن تدرس الأقطار والأقوام واحداً واحداً. ولقد استفاد محمد عزة دروزة، من كل ما اكتشفه المؤرخون، مستشرقون وغير مستشرقين، من عوامل الوحدة، كما يظهر في كتبه.

٢ ـ إن الوطن العربي واحد جغرافياً، وإن حدوده حدود طبيعية، وإن الوطن يمثل وحدة جغرافية وطبيعية تامة[٦٤]. ويرى دروزة ان الوحدة كانت دائماً: «هدفاً من أهداف حركات الجنس العربي ودوله وحروبه، من أقدم أزمنة التاريخ، كنتيجة من نتائج الوحدة الجغرافية للبلاد التي نشأ فيها العرب، أو هاجروا إليها واستقروا فيها»[٦٥].

لقد بحث دروزة عن عوامل الوحدة في الوطن العربي والتاريخ العربي، وأكد عليها، داحضاً كل محاولات التفرقة والتقسيم فيها. وكان في ذلك يـرد على المدارس التي قسمت الوطن، وجزأت التاريخ، كما يردّ على التجزئة المعاصرة.

وحاول دروزة في كل ذلك، أن يستند إلى المراجع العلمية، وأن يقدم الأدلة والشواهد العلمية. فهو لا يريد أن يؤلف تاريخاً، بل أن يكشف عوامل الوحدة في هذا التاريخ، والسمات الموحدة في هذه الأمة.

إن هذه الرؤية القومية للتاريخ العربي، في مختلف مراحله، مدرسة فكرية وسياسية، لم تنل بعد ما تستحق من اهتمام. ولم يحاول أحد أن يدرسها من قبل. وهذه أشارات أولى، لمن يريدون ارتياد هذا العالم الجديد.

وعلينا أن نقرر أن محمد عزة دروزة رائد مؤسس في هذا الميدان، وانه تخطى جورجي زيدان وجواد علي، لا في المعلومات التي قدمها، بل بربط هذه الرؤية القومية بالمشروع القومي الوحدوي. ولذلك، فإنه يستحق أن يسمى شيخ المؤرخين القوميين، ومبلور الرؤية القـومية للتاريخ العربي، وأن يدرس على هذا الأساس.

- ٤ -

العرب أمة واحدة، وهم ليسوا كذلك اليوم، ولا بانتشار الإسلام، بل قبل ذلك كثيراً، وفي رأي الأستاذ محمد عزة دروزة فان «هذه الوحدة متوافرة في الوطن العربي منذ أقدم الأزمنة إلى الآن». ويضيف: «فمهما تختلف آراء الباحثين في منشأ الجنس العربي، قبل وحوده في جزيرة العـرب، فمعظمهم متفقون على أن الجزيرة، منذ أن صار البشر يحيون نوعاً ما حياة مدنية وسياسية واجتماعية، ويخلفون آثارهم فيها لمن بعدهم، مما يحسب بدء التاريخ الإنساني والمدني القديم، كانت مأهولة بجماعات متشابهة في الملامح والطبائع، تتكلم لغة واحدة، وإن تعددت لهجاتها، وإن الأقوام التي سميت خطأ بالأقوام السامية، وسجلت نشاطها السياسي والحزبي والاجتماعي والعمراني والفكري العظيم في جنوب الجزيرة وشمالها، ثم في البلاد المجاورة للجزيرة، أي بلاد العراق والشام ووادي النيل، هم من هذه الجماعات»(٦٦).

وهـو هنا يختلف مـع النظريـة الماركسيـة في نشوء الأمم التي تـربط نشوء الأمم بنشؤ الرأسمالية. وإن كان لا يناقش ذلك فيما قرأنا من كتبه. كما أنه يختلف مع الذين يربطون الأمة العربية بالإسلام. ويذهب الأستاذ دروزة إلى أن هنالك ظروفاً طبيعية واجتماعية، جعلت وضع العرب يكاد يكون فريداً. وهو يقول في ذلك: «ولقد كانت العوامل الطبيعية والاجتماعية، مثل الجفاف، وشح الماء والقحط، وقلة الكلأ، والمنازعات القبلية، تعمل عملها في جزيرة العرب، منذ الأحقاب السحيقة في القدم، فتحفز جماعات من سكانها، إلى الانسيـاح إلى الأقطار المجـاورة جنوبـاً وشمالاً، قبـل بروز العـروبة الصريحة. ثم ظلت هذه العوامل التي هي ظاهرة طبيعية واجتماعية من ظواهر الجزيرة، تعمل عملها دوراً بعد دور، بعد بروز العروبة الصريحة قبل الإسلام وبعده، وما تزال، فيكون في هذا التلاحق المتواصل المتحد في طبيعته وحوافزه ومجراه، الدليل على وحدة الأصل والجنس والمنشأ، بين سكان الجزيرة والأقطار المجاورة لها، ويكون

فيه وسيلة مثمرة إلى توثيق الصلات والروابط والوحدة بين القلب والأطراف، وتجديد دم الجنسية العربية، وحيويتها وطابعها، مما لا يكاد يكون له مثيل في الدنيا»[٦٧].

ولقد مرت هذه العملية، في رأي محمد عزة دروزة، بدورين:

الأول: دور العروبة غير الصريحة: وفي هذا الدور: «لم يكن (العرب) قد عرفوا فيه باسم العرب». «ولم تكن اللغة العربية الفصحى التي يمثلها القرآن، أو التي كانت في سبيل التطور نحوها لغة لهم فيه». أما أهل الدور الأول فهم: «الموجات الأولى التي انساحت من جزيرة العرب إلى وادي النيل وأثيوبيا وبلاد الشام والعراق وعمرتها، ثم سكان جزيرة العرب القدماء».

الثاني: دور العروبة الصريحة: «وهو الدور الذي عرف فيه (العرب) بهذا الاسم، وغدا لهم علماً جنساً، وغدت اللغة العربية الفصحى، أو التي كانت بسبيل التطور نحوها، لغة له». «أما أهل الدور الثاني، فهم القبائل والدول العربية التي كانت تعيش في جزيرة العرب وأطرافها، ثم في بلاد العراق والشام، قبل الإسلام ببضعة قرون، ومن جاء بعدهم مطبوعاً بالطابع العربي الصريح»[٦٨].

وهذا يتضمن أن الدور الأول، حمل ملامح الدور الثاني وسماته، ولكن العروبة ظهرت في الدور الثاني صريحة. وبهذا يكون الدوران متكاملين وإن اختلفت التسمية. وكما أن اللغة العربية هي مخاض هذا التطور اللغوي الطويل الذي يبدأ من الأكدية إلى الأشورية والبابلية واليمنية الجنوبية والكنعانية، إلى الآرامية فالعربية، فإن الأمة العربية هي مخاض تطور قومي طويل، يبدأ من هذه الأقوام التي تكلمت هذه اللغات، وينتهي بالعرب.

هنا نجد دروزة مختلفاً، مع الذين اعتبروا العرب، عرب شمال الجزيرة، والذين اعتبروا الأقوام الأخرى، المشار إليها، من سكان وادي الرافدين والنيل والشام والمغرب، وسائر أجزاء الوطن العربي، أمماً مختلفة. فالعرب هم «سلالة» هؤلاء الأقوام كلهم، والعروبة الصريحة طور في هذا التطور الطويل.

ولما كان دروزة هو أول من استخدم هذا المصطلح: العروبة الصريحة والعروبة غير الصريحة، فيمن قرأنا لهم، فإنه يضعنا أمام قضية سجالية. حول التسمية أولاً، والموضوع ثانياً.

فمن حيث التسمية: هل يجوز أن نقول: العروبة الصريحة، والعروبة غير الصريحة. ومن حيث الموضوع: هل العرب الصرحاء، اسماً لا جنساً، هم «سلالة» الأقوام المشار إليها؟

إن المراجع التي درسها الأستاذ دروزة، تؤكد هذه الحقيقة. ولقد أكدتها الدراسات التي لم تتح لمحمد عزة دروزة أن يقرأها، وبالتالي، فإننا نميل إلى ترجيح رأيه[٦٩].

أما من حيث التسمية، فيبدو الأمر منطقياً، لأن سكان الوطن العربي الحاليين هم «سلالة» هذه الأقوام، وحصيلة هجراتها وصراعاتها واختلاطها، كما أن العربية هي نتاج لغاتها[٧٠]. ومع ذلك، فإننا نرى ضرورة طرح هذه القضية للمناقشة الواسعة، وتمحيص أركانها، لكشف مواضع قوتها وضعفها.

وما دامت الأمة العربية قائمة وموجودة، فما عوامل تكوينها؟ هل هي العوامل التقليدية التي تحدث عنها ستالين في كتابه[٧١]؟ أم هي عوامل أخرى؟

هنا يجيبنا الأستاذ محمد عزة دروزة إجابات محددة، ولكنها تختلف أحياناً في تعبيراتها. فهو في كتاب **الوحدة العربية** يحدد عوامل الوحدة بصيغتين:

الأولى: تجعلها قائمة في اللغة والتاريخ والوحدة الروحية الدينية. والوحدة الثقافية والتشريعية والاجتماعية، ويقدم لذلك بقوله: إن الوحدة الجنسية ليست شرطاً[٧٢].

والثانية: تجعل العرب أمة واحدة... «يجمع بينها التاريخ واللغة والمصلحة والدم والمعتقد»[٧٣].

ولكنه يطرح الموضوع في أماكن أخرى بأسلوب آخر. فهو في كتابه: **نشأة الحركة العربية الحديثة** يرى أن: «الفكرة القومية الحديثة، قامت على أساس وحدة اللغة والموطن والعواطف والتاريخ والمصلحة». ويرى أيضاً أن: «القضية القومية العربية احتوت عناصر القضايا القومية. بل إن هذه العناصر فيها أقوى، من الوجهة النظرية، منها في كثير من القضايا القومية الحديثة، وبخاصة الأوروبية». ويضيف: «فالوطن العربي الحاضر هو نفسه منبت أو موطن الجنس العربي، ومهاجر موجاته التاريخية...»، «والدم العربي الأصلي ما يزال حياً متمثلاً إلى الآن في جزيرة العرب التي يتصل سكانها بسائر سكان مواطن العرب الأخرى...»، «واللغة العربية اليوم هي نفس اللغة العربية، منذ ألف وخمسماية سنة على الأقل...»[٧٤].

ثم يقول في مكان آخر: «هذا إلى ارتكاز القضية العربية إلى وحدة تاريخية، ووحدة روحية، ووحدة ثقافية، ووحدة تشريعية، ووحدة اجتماعية، ووحدة اقتصادية، اشتملت الوطن العربي الكبير، منذ أكثر من ألف عام، دون انقطاع حقيقي، بحيث ظل سكانه يعيشون في جو تاريخي وروحي وتشريعي واجتماعي وثقافي ولغوي واقتصادي واحد تقريباً. ولم يكن من شأن ما كان يقوم من مظاهر وسلطات ومنازعات ونزعات متباينة، وغزوات خارجية أحياناً، أن يخلق تبايناً حقيقياً في ذلك بوجه الإجمال»[٧٥].

ويحاول دروزة أن يوضح ذلك في أكثر من مكان. ويظهر من إيضاحاته أنه مقتنع: «ان البحث العلمي الحديث لا يجعل الوحدة الجنسية العنصرية من المقومات الرئيسية للوحدة الوطنية والسياسية. فقد توطدت هذه الوحدة في بلاد، لا يجمع بين سكانها أصل جنسي وعنصري واحد». ولكنه مقتنع أيضاً: «ان مثل هذا الركن، إذا توافر في بلاد ما، كانت الوحدة التي تقوم فيه أقوى وأشد تماسكاً من الوحدة التي لا تتوافر فيه، لأن في توافرها تتوفر وحدة الميول والطبائع والتقاليد على اختلاف أنواعها».

وهو مقتنع، إلى جانب ذلك، بأن: «هذه الوحدة متوفرة في الوطن العربي، منذ أقدم الأزمنة إلى الآن»، كما ذكرنا[٧٦].

وقد يوحي هذا أنه يؤكد صفاء العرق، ولا سيما أنه يشير إلى وحدة الدم، من بين عوامل الوحدة. ولكن الذي يقرأ كتاباته، يجده يشير إلى نقيض ذلك. فبعد أن يقول: «وهكذا تكون الوحدة الجنسية متوفرة بقوة وشمول في الوطن العربي الكبير، منذ أقدم أزمنة التاريخ إلى الآن»؛ يستدرك: «نقول هذا، ونحن نعرف أن في مختلف أنحاء الوطن العربي، جماعات تمتّ إلى غير الجنس العربي، وان دماء

غير عربية تجري في عروق كثير من سكانه. منهم من يتصل وجوده فيه بالأحقاب القديمة، حيث كانت موجات وغزوات آسيوية وإفريقية وأوروبية، تطرأ على بعض أجزائه، وتستقر فيه. ومنهم من يتصل وجوده بالأحقاب الحديثة. غير أن هذا ليس من شأنه أن ينقض ما قررناه، من توافر الوحدة الجنسية، وشمولها لجميع الوطن العربي»[٧٧].

وهكذا لا يعود صفاء العرق وارداً، وإن ظل الحديث عن الوحدة الجنسية متواتراً. ويصبح معنى الوحدة الجنسية وحدة الجماعة العربية، «سليلة» الأقوام العربية المختلطة دماؤها بدماء أخرى غير عربية.

وحين قرر الأستاذ محمد عزة دروزة أن يعدد عوامل الوحدة أعطى الاهتمام الرئيسي لأربعة:

الأول: اللغة. وفي رأيه أن الوحدة اللغوية: «من أهم أركان الوحدة ومقوماتها... وقد كانت الأساس الأقوى لوحدة كثير من الدول قديماً وحديثاً. ولو لم يكن بين سكانها وحدة دينية أو جنسية أو تاريخية، حتى لقد شبه بعض الباحثين اللغة بحياة الأمة». «وركن الوحدة اللغوية متوفر في الوطن العربي الكبير بسعة وقوة وشمول، فاق كثيراً، مما في دول كثيرة، تحققت لها وحدتها». فهناك ٩٤ بالمائة من سكان الوطن العربي، يتكلمون العربية و٦ بالمائة لا يتكلمونها. ومصير هذه «الأقلية» أن تتعلم العربية عندما يعمم التعليم. ولا يفوت الأستاذ دروزة أن يؤكد: «أن الوحدة اللغوية ـ العربية، كانت قائمة نوعاً في الوطن العربي، منذ أقدم الأزمنة»[٧٨].

الثاني: التاريخ المشترك. وهو ما يسميه أستاذنا الوحدة التاريخية السياسية. وهو يرى أن هذه الوحدة كانت دائماً هدفاً من أهداف حركة الجنس العربي، كما أشرنا. ويضيف: «وقد كانت تتوفر وتتحقق كلياً أو جزئياً، في مختلف حقب التاريخ القديم والمتوسط، بل والحديث، بقطع النظر عن الحوافز والأساليب». ويتوسع الأستاذ دروزة في بحث هذه القضية[٧٩].

الثالث: الوحدة الروحية الدينية: «والوحدة الدينية أو الروحية متوفرة في الوطن العربي، بأقوى مظهرها، وأوسع مداها، حيث يدخل في نطاقها معظم سكان الوطن العربي، أو بتعبير رقمي ٩٣٪ منهم». وإن كانت الوحدة الدينية أو الروحية، «قد لا تكون»، كما يقول الأستاذ دروزة «ضرورية لقيام الوحدة السياسية أو ركناً من أركانها...» في الحياة الحديثة. وعلى الرغم من ذلك، فهو يرى: «أن توفر الوحدة الدينية والروحية في وطن ما، يجعل قيام الوحدة بين أبنائه وأجزائه أيسر تحقيقاً، وادعى إلى التواثق والترابط بين أبناء الوطن وأجزائه».

ولا يرى دروزة مشكلة في وجود النصارى من جهة، «فليس بين الإسلام والنصرانية تناقض في الأهداف والدعوة بالنسبة للحياة ومثلها. وكلاهما نابعان من نبع واحد». ومن جهة أخرى، فهناك ما يجمع بين مسلمي العرب ونصاراهم، وهو «الدم العربي الصريح في كثير من النصارى من ناحية، والتاريخ واللغة من ناحية أخرى...»[٨٠].

الرابع: الوحدة التشريعية والثقافية والاجتماعية: وهو يرى أن هذا الركن متوافر: «بسعة

وشمول أيضاً». لأن التشريع: «كان منذ أربعة عشر قرناً، ولا يزال، واحداً في أصوله وفروعه، لأنه مستمد من أصول الشريعة الإسلامية». ولكن هذا ليس الجانب الوحيد من جوانب الوحدة الاجتماعية، فهو يرى أيضاً: «سكان الوطن العربي، يتشاركون منذ آماد طويلة، وإلى درجة كبيرة، في معظم عادات الزواج والأعراس والمآدب والمآتم والمعاشرة والتعامل والبيع والشراء واللهو والزينة والرياضة والسمر، والحياة والعمل والمعيشة والأكل والشرب، في المدن والقرى، وتقاليدها ومراسمها وأساليبها، كما يتشاركون في الأذواق والعواطف والأساليب الدينية ووسائلها...». ولا يقصر الأستاذ دروزة ذلك على المسلمين لأن: «هذا التشارك، ليشمل في كثير من مظاهره نصارى العرب أيضاً، نتيجة للوحدة التاريخية واللغوية والجنسية التي عاش الفريقان في ظلها. إلى جانب بعضهما آماداً طويلة».

ثم: «إن شيئاً من هذا التشارك، يمتد إلى ما كان جارياً من عادات وتقاليد ومراسم وأساليب قبل الإسلام أيضاً، لأن أسبابه قائمة فيما اجتمع فيه أبناء الوطن العربي، من وحدة تاريخية ولغوية وجنسية».

وينطبق هذا على: «الوحدة الثقافية والفنية، وخاصة بعد الإسلام»[٨١].

الأمة إذاً واحدة، ليست موضوع نقاش. ووجودها قائم. والعملية التاريخية لتكوينها وتطورها تأخذ مجراها، رغم كل الحالات الطارئة، من غزوات الحثيين والفرس، إلى غزوات الأحباش والروم، إلى غزوات الفرنجة، ومن الاحتلال العثماني إلى الاحتلال الأوروبي الحديث.

والأمة قائمة رغم التجزئة، والعوائق الأخرى التي تقف في سبيل وحدتها. وما يتوافر من عوامل الوحدة القومية، في أية أمة، يتوافر أكثر منه في الأمة العربية.

ولكن ما علاقة العروبة بالإسلام؟ وكيف يمكن أن نوفق بين حرص دروزة على إبراز عملية التكون التاريخية لوجود الأمة العربية قبل الإسلام، واهتمامه الشديد بالإسلام والدراسات القرآنية؟

يقرر دروزة هنا ما يلي:

أولاً: ان عملية تكون الأمة العربية بدأت قبل الإسلام بكثير، وان العروبة الصريحة اكتملت قبل الإسلام بحوالى ألف عام، كما هو ثابت تاريخياً، مع أنه يرجح أن يكون ما أثبتته الاكتشافات التاريخية، قبل تسعمائة سنة من الميلاد، قد اكتمل قبل ذلك[٨٢]. وبالتالي فلا لبس لديه في العلاقة التاريخية بين العروبة والإسلام.

ثانياً: إن العرب سادوا بالإسلام. ولذلك: «فإن سمة الإسلام قد غدت حقاً سمة العرب». ولكن هذه السمة في نظر دروزة: «لم تعن ولا يمكن أن تعني أن الذاتية العربية قد زالت، أو يجب أن تزول، أو يمكن أن تزول بها، فهي مستمدة من واقع ذاتي قائم لا يجوز المكابرة فيه بتميزها في اللغة والخصائص والموطن. وهذا شأن كل الأمم التي تدين بالإسلام».

وهكذا فإن الأمة أمة، والدين دين والعرب عرب بالإسلام، والإسلام لا يلغي هويتهم

القومية، كما لم يلغ هوية الأمم الأخرى التي اعتنقت الإسلام. وهناك أمم تعتنق الإسلام، وهي تحتفظ بهوياتها القومية.

والإسلام دين للناس كافة، ولكن بينه وبين العرب علاقة خاصة، ولذلك فإن دروزة يذكرنا بالحديث المشهور: «إذا ذلت العرب ذل الإسلام». ويبني دروزة على ذلك أن المتأصل: «في تاريخ الإسلام يجد أن العزة والقوة والحيوية، إنما كانت تتحقق بمعناها النافذ في أي قطر، امتد إليه الإسلام، حينما يكون العرب هم أصحاب السلطان وحملة رايته. أو حينما تكون العروبة طابع أصحاب السلطات وحملة رايته». وبالمقابل، فقد كانت سيطرة الأقوام غير العربية عامل ضعف للعرب بخاصة، وللمسلمين بعامة.

ثالثاً: إن: «الدعوة العربية لا تأخذ قوتها ومداها، إلا إذا تلازمت مع الإسلام». ولذلك، فإن دروزة، بعد أن يذكر ما تحقق بالإسلام يقول: «وكل هذا يظهر خطورة واجب الدعاة إلى القومية العربية بالتزام الإسلام عقيدة وصفة وصبغة»[٨٣]. ومع ذلك، فإن دروزة، يطرح قيام دولة قومية، ضمن إطار حدود الوطن العربي، ولا يطرح قيام دولة إسلامية، ضمن إطار العالم الإسلامي؛ فيما يطرح.

إلا أن هذا لم يمنع الأستاذ محمد عزة دروزة، من أن يكرس جهداً مهماً للدراسات الإسلامية، كما تظهر قائمة مؤلفاته، وكما تكشف مقالاته وأحاديثه.

وهنا يضعنا محمد عزة دروزة أمام أسئلة عديدة، مثلاً: هل كان يريد تحقيق وحدة عربية ببرنامج إسلامي؟ وما هو هذا البرنامج؟ وهل تتحقق الوحدة العربية لتكون أساس وحدة إسلامية؟ وكيف؟ ولقد أجاب؛ من قبل في كتابه **مشاكل العالم العربي** قائلاً: «إننا لا نقصد بما قلناه عن شأن العرب في العالم الإسلامي، أننا نتطلع إلى جامعة إسلامية سياسية عامة، أو خلافة إسلامية سياسية عامة يكون العرب على رأسها. كما أننا نعرف أن مجال ذلك مسدود اليوم. ولا يقاس الأمر بما كان عليه وضع السلطان الإسلامي عامة، والسلطان الإسلامي العربي خاصة، في سالف الدهر»[٨٤].

ولكن علينا أن نلاحظ أن الفقرة المهمة التي تتعلق بعلاقة العروبة والإسلام، والواردة في كتاب **نشأة الحركة العربية الحديثة**، أضيفت في الطبعة الثانية، الصادرة سنة ١٩٧١، ولم تكن في الطبعة الأولى كما يشير المؤلف[٨٥].

وفي هذا الوقت كان الأستاذ محمد عزة دروزة، قد انقطع عن النشاط السياسي، منذ مدة طويلة، كما أن الحركة الإسلامية كانت قد صارت فعالة بينما كانت الحركة القومية، تشهد بداية ضعفها. ومن المؤكد أن هذه الظروف تركت آثارها في الرجل الذي كان في الأساس مسلماً مؤمناً، ومقتنعاً بالإسلام، وكتبه خير شاهد على ذلك.

لقد كان دروزة مقتنعاً أن وحدة العرب هي الأساس، وأن قيام وحدة العرب، يوحد المسلمين. ولكنه طرح برنامج وحدة عربية، ولم يطرح برنامج وحدة إسلامية. وإن كان قد دعا إلى قيام «رابطة الشعوب الإسلامية، على أسس تعاونية، سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية» ورأى في ذلك: «كل الخير للعرب خاصة، وللمجموعة الإسلامية عامة»[٨٦].

ـ ٥ ـ

ولقد دأب محمد عزة دروزة، انطلاقاً من كل ذلك، يدعو للوحدة العربية الشاملة، ويعمل من أجلها. فقد بحث الكثير من القضايا المتعلقة بالوحدة، وطرح الكثير من المسائل القومية، وعالج ما لم يعالجه كل القوميين، فتناول ضرورة الوحدة والعوائق التي تقف في سبيلها وأهدافها، كما تناول طريقة تحقيقها، وناقش موضوع الوحدة والاتحاد، وقدم ميثاقاً اتحادياً.

وسنحاول في هذه العجالة، أن نقدم أفكاره في كل هذه الميادين بالقدر اللازم من الاختصار.

يرى دروزه في الوحدة ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية وإسلامية وإنسانية.

ـ فمن الناحية السياسية: يرى الأستاذ محمد عزة دروزة « أن كل واع سليم التفكير، يعترف بقرارة نفسه، أنه لن يكون للعرب كيان محترم قوي، إلا بالوحدة الفعلية، لا الأدبية والروحية فقط. ويعترف أن العرب سيظلون عرضة للازدراء والنفي والاستغلال، ما داموا لا يجتمعون في وحدة فعلية وشاملة ». هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن وقائع التاريخ أثبتت: « على أنه لم يصب العرب وهن، أو يقع عليهم بغي وعدوان، يندحرون أمامهما، في أي ظرف من ظروفهم، إلا حينما كانت وحدتهم منفصمة أو واهنة، ودولهم وإماراتهم عديدة ومتنابذة ومتكايدة، وقواهم منقسمة موزعة، ولم يكونوا أقوياء مزدهري الحضارة والعلم والعمران، نافذي السلطان، مرهوبي الجانب، مخطوبي الود، في أي ظرف من ظروفهم كذلك، إلا حينما كانوا متحدين في دولة واحدة: جيشهم واحد، واقتصادهم واحد، ونظمهم واحدة ».

وهذه الوحدة، لا تستند إلى عواملها الذاتية فقط، بل تستند إلى سياق سياسي عالمي. لأن العالم يتجه اليوم إلى التكتل، وهذه الشعوب فيه، تبحث عن أشكال من الوحدة، على أسس سياسية. وهو « مما يزيد من قوة تلك الضرورة، والحافز عليها ».

ويقدم الأستاذ محمد عزة دروزة أمثلة على مضاعفات الوحدة والانقسام من التاريخ العربي الإسلامي[٨٧].

ـ ومن الناحية العسكرية: إن مركز الوطن العربي الممتاز، وثرواته الظاهرة والباطنة، وبخاصة الثروة النفطية الهائلة، تجعله موضع أطماع القوى الطامعة، وتصارع القوى المتصارعة. « وكل هذا يبرز ضرورة الوحدة العربية، فهي السبيل الوحيد إلى قوة العرب، أصحاب هذا المركز العالمي الممتاز وغدوهم جبهة موحدة قوية، لتدرأ عنهم أطماع الطامعين والمستغلين والمتشادين »[٨٨].

ـ ومن الناحية الاقتصادية والاجتماعية: « فإن مصالح العرب الاقتصادية والاجتماعية، تجعل الوحدة ضرورة مبرمة لهم أيضاً. بل إن القوة السياسية والحربية، ليست في الحقيقة إلا نتيجة من نتائج الازدهار الاقتصادي الاجتماعي الذي يمد الذين يقوم عندهم بأسباب القوة والحيوية والنشاط، كما لا يخفى »[٨٩].

ـ ومن الناحية الإسلامية والإنسانية: يرى الأستاذ دروزة أن نصوص القرآن ربطت الإسلام بالعرب والعرب بالإسلام. « فإذا ما قام العرب بهذا الدور العظيم الذي بينه لهم القرآن، غدت

مبادىء الإسلام دين الإنسانية العام . . . وبذلك يعلو قدرهم بين الأمم، ويكونون، كما وصفهم القرآن، خير أمة أخرجت للناس . . . وفي هذا ما فيه من خدمة إنسانية جليلة، وتحقيق للرسالة الإسلامية في الوقت نفسه »[٩٠].

وقد دفعه إيمانه بالوحدة، وقناعته بضرورة تحقيقها، إلى بحث العوائق التي تقف في سبيلها. وأوصله بحثه في ذلك، إلى تحديد العقبات التالية:

- **العقبات الخارجية أو الاستعمار**: « ودولتا فرنسا وانكلترا، هما صاحبتا معظم صفحات هذا التاريخ الأسود الطويل في الوطن العربي . . . وهما اللتان ترسمتا، وما تزالان تترسمان العدوان عليه، وإضعافه وتجزئته واستغلاله. وتعطيل أية حركة تهدف إلى جمع شمله ووحدته، والوقوف في وجه أي تقدم وازدهار له ». ولكن بريطانيا وفرنسا ليستا وحدهما، « فإسبانيا جزء منه، وهناك الولايات المتحدة الأميركية التي أخذت تساهم في تسويد هذا التاريخ، كما أن السرطان اليهودي الخبيث الذي هو من مضاعفات البلاء الانكليزي. ولتركيا الحديثة سهم ما في هذا السجل، على ما سوف نشرحه فيما يلي من المباحث »[٩١].

- **العقبات الداخلية وهي**: الاقليمية والاعتبارات الطائفية والشخصية والأسروية؛ جمود الوعي العربي وسلبيته وعدم عمقه؛ عقبات داخلية أخرى، مثل اختلاف أنظمة الحكم، والتفاوت بين سكان الأقاليم، والأبعاد الشاسعة التي تفصل بين الأقطار[٩٢].

أما العقبة الأولى، فيتم التغلب عليها بالكفاح: « فقوة الروح القومية، وفكرة استقلال الشعوب، وحقها في الحياة الحرة المستقلة، واستنكار الاستعمار، والسيطرة العدوانية الاستغلالية على البلاد والشعوب الأخرى. ومناوأته في البلاد التي ابتليت به، كل ذلك آخذ بالنمو والاتساع، وهو اليوم شامل لآسيا وأفريقيا معاً . . . ». وليس العرب خارج اطار هذه الحركة الواسعة. « ونظرة إلى تاريخ هذا الكفاح، وأطواره في مختلف أنحاء الوطن العربي، كافية للتأكد من قوة حيوية العرب، وروحهم القومية النضالية، واستعدادهم للاستمرار في كفاحهم، وتحمل ما يقتضيه من شدائد . . . إلى أن تكتب لهم الغلبة، ويقوضوا طاغوت الاستعمار في بلادهم ».

وكذلك العقبة الثانية، وهي اليهود، كما يسميها الأستاذ دروزة، فإن إمكانية التغلب عليها واردة. وبعد أن يناقش الأستاذ دروزة موازين القوى وتطوراتها، يصل إلى الكيان الصهيوني، وإن كان عقبة في سبيل الوحدة، فإنه لا يستطيع أن يمنع: « قيام وحدة أو اتحاد بين الدول العربية كمرحلة أولى . . . وهذا سيكون من أقوى الوسائل إلى اجتثاث تلك الجرثومة الخبيثة، وإزالة خطرها وعارها ».

أما نشاط أمريكا، واعتبارات فرنسا، وعداء تركيا، فلا يعتبرها عقبات حقيقية[٩٣].

هذا فيما يتعلق بالعقبات الخارجية، وأما العقبات الداخلية، فهو يقترح حلولاً لها، واحدة واحدة. وهو يقترح لمعالجة جمود الوعي إزالة الأمية وتطور التعليم والتوجيه القومي، وبناء تنظيم شعبي يتغلغل في أوساط الجماهير، « وخاصة إذا اشتدت الدعوة إلى الشبان المثقفين بالاقدام على الاضطلاع لبعث التنظيم الشعبي المتغلغل، وبث فكرة الوحدة ومقوماتها وضرورتها وفوائدها، والعقبات الداخلية والخارجية في طريقها، بين مختلف الطبقات، وعلى أوسع نطاق ممكن. واستجابوا إليها بجد وجلد وتضحية . . . »[٩٤].

أما الطائفية، فيقترح لمعالجتها، توحيد التعليم، وجعله قومياً وذلك: « بإلغاء التعليم الطائفي، وجعل التعليم مشتركاً، منذ درجاته الأولى، فلا يكون في الدولة إلا تعليم قومي واحد، ومدارس قومية واحدة، تضم أبناء الطوائف على اختلافها، وتسود فيها الصبغة القومية البحتة؛ وفقاً لمنهج ثقافي عام »[٩٥].

ويرى أن الاقليمية « مهما يكن أمرها، فإن اتساع نطاق التعليم وشموله، وما ينشأ عنهما من اتساع نطاق الوعي القومي، وتبدل صفته، سيكون عاملاً قوياً في التغلب عليها »[٩٦]. وهو يشير إلى مؤتمرات المحامين والأطباء والطلبة العرب، وأثرها، كما يشير إلى « ان ثورة مصر المباركة واندفاع مصر بعدها بقوة في تيار الحركة العربية القومية، ونشاط رجال الثورة في مختلف الميادين، وانتصاراتهم على الدول الغربية، وسياسة التحرر والحياد الايجابي التي قادتها مصر وسورية. . . والحركات النضالية التي قويت في شمال أفريقيا، وصمود مصر وسورية للمؤامرات والدسائس التي قامت بها الولايات المتحدة. . . بالإضافة إلى ما كان من سعة انتشار التعليم، وتبادل الزيارات والمؤتمرات المتنوعة التي أخذت تنعقد في مختلف أنحاء الوطن العربي، والنشاط الذي تقوم به المنظمات القومية. كل هذا كان عاملاً في الهاب العواطف القومية، وتوسيع نطاق الوعي القومي وترسيخه، واخراجه من جموده، وإضعاف النزعات الاقليمية والطائفية والشعوبية »[٩٧].

ويتناول الأستاذ دروزة العقبات الأخرى. فاختلاف أنظمة الحكم، يتم التغلب عليها بالوحدة الاتحادية، وما بين الأقطار العربية من تفاوتات، موجود داخل القطر الواحد. وهذا التفاوت: « ليس أصلاً طبيعياً في جبلة الجنس العربي »[٩٨]، « ولا يصح أن يكون مبرراً لعدم شمول الوحدة العربية لمختلف الأقطار العربية، أو دعوى تعذر الانسجام بينها »[٩٩]. واتساع المساحة لا يقف عائقاً لأن هنالك بلاداً: « أوسع بكثير من بلاد العرب، أو مثلها أو قريبة منها، وفيها من العوارض والمعالم والأبعاد مايماثل ما في بلاد العرب »[١٠٠]. ومع ذلك، فإن هذا لم يمنع قيام دولة موحدة فيها، كالاتحاد السوفياتي والصين والولايات المتحدة الأمريكية.

ولا ينسى أن يضيف أن: « وسائل الاتصال العصرية، قد طوت المسافات، وقربت الأبعاد »[١٠١]. ويضيف: « ولقد كانت بلاد العرب، بجميع مساحاتها هذه، وحدة في أدوار تاريخية عديدة، قبل الإسلام وبعده، على ما مر شرحه في فصل سابق. بل كان ينضم إليها أقطار عديدة أخرى، من غير الأقطار العربية، بحيث كانت مساحة الدولة، تقرب من مساحة روسيا »[١٠٢].

وما دام الموضوع موضوع حديث العقبات الخارجية والداخلية، فلا بد من أن نشير إلى أن الأستاذ دروزة لم يكن يرى، أن علينا الانتظار لتذليل كل هذه العقبات، قبل أن تتحقق الوحدة، لأن هذا: « يعني انتظار عشرات السنين، كما يعني عدم ادراك كون الوحدة هي الكفيلة بمعالجة كثير من العقبات الداخلية والخارجية، بحيث يصح أن يقال بحق ان هذه العقبات تظل قائمة، ما لم تقم الوحدة »[١٠٣].

نحن إذاً لا نستطيع أن نتغلب على العقبات إلا بالكفاح وبالوعي والتعليم والتوجيه القومي، وبناء التنظيم المتغلغل شعبياً. ونحن قادرون على ذلك، لأن شعبنا مستعد للتضحية، ولأننا نعمل ضمن إطار حركة تحرر عامة، في آسيا وأفريقيا.

وبحث الأستاذ دروزة، إلى جانب هذا كله، قضيتين مهمتين، لم يولهما المثقفون العرب

أي اهتمام، إذا استثنينا د. نديم البيطار. وهما: كيف كانت الوحدة تتحقق في الماضي، وكيف يمكن أن تحقق الوحدة العربية الآن؟

ما يتعلق بالقضية الأولى، قدم الأستاذ دروزة فكرته عبر دراسة التاريخ العربي، وقدم ملخصاً عنها في كتاب الوحدة العربية. وفي هذا الملخص استخلص ما يلي:

١ ـ كان التوحيد يتم على مراحل. فيوحّد أولاً اقليمان، ثم تمتد حركة التوحيد إلى الأجزاء الأخرى. ويمكن هنا ضرب أمثلة عديدة من التاريخ العربي القديم والمتوسط، وحتى الحديث. والمترجَم له، يضرب أمثلة كثيرة.

٢ ـ كان التوحيد يجري على أساليب متنوعة، وبصيغ مختلفة، من الوحدة التامة، إلى الصيغ الاتحادية. وكان الأسلوبان في كثير من الأحيان يلتقيان.

٣ ـ وكان الحافز على الوحدة، وهو المطمح الشخصي أو الأسروي، ولكن: « كثيراً ما كان يمتزج بالمطمح الوطني أو القومي أو الديني »[١٠٤].

٤ ـ « وكانت هذه الحركات تقوم في الدرجة الأولى على القوة الحربية ». إلا أن هذا لا يعني اغفال « المساعي السياسية والاقناعية بالفائدة العامة التي تجنيها البلاد وأهلها من الاتحاد »[١٠٥].

وهذا القسم، من كتابات محمد عزة دروزة مهم. لأنه يدرس فيه قضايا الجغرافية التاريخية للوحدة. ولكنه لا يتطرق إلى بحث الأصول الاجتماعية للمطامح الشخصية والأسروية. كما أنه لا يحلل السمات الرئيسية في الجغرافية التاريخية للوحدة في الوطن العربي... علاقة الوحدة بالهجرات، أو الفيضان السكاني، وانتقال قوى الوحدة من اقليم إلى آخر لاستكمال العملية الوحدوية.

أما القضية الثانية فقد قدم لها دروزة بفصل موجز، عنوانه: «كيف تحققت وحدة الأمم الأخرى في العصور الحديثة»[١٠٦]، ولم يشر في هذا الفصل إلا إلى وحدتي ألمانيا وايطاليا. على الرغم من أنهما تمتا في القرن الماضي، وفي ظروف مختلفة عن ظروفنا. كما أن هناك وحدات تمت في هذا العصر، وفي ظل ظروف أقرب لظروفنا، مثل وحدة الصين والهند وفيتنام. وهو بذلك تجنب بحث موضوع قيادة العملية الوحدوية، ومن هي القوى ذات المصلحة فيها. ولماذا اختلف أسلوب تحقيق وحدة ألمانيا وايطاليا والهند، عن أسلوب تحقيق وحدة الصين وفيتنام.

وبعد هذا كله، كيف ستحقق الوحدة العربية المعاصرة؟

إن الأستاذ دروزة، يلخص لنا القوانين التاريخية في هذا المجال في ثلاثة: « ١) القوة الحربية التي تتحرك بالمطمح الشخصي... » و « ٢) القوة الحربية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز الديني... » و « ٣) القوة الحربية والمساعي السياسية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز القومي معاً... »[١٠٧].

ويرى الأستاذ دروزة أن الطريقة الثالثة، قد تكون: « الأكثر انطباقاً على حالة الأمة والبلاد العربية اليوم»[١٠٨]. كما يرى: « ضرورة تبني احدى الدول العربية الدعوة إلى الوحدة، وحمل رايتها ». وهو يرشح مصر وسوريا لذلك، موضحاً كيف راهنت الحركة القومية على العراق الفيصلي في البدء، وكيف كان هو من دعاة هذا الاتجاه[١٠٩]. إلا أن وجود دولة تتبنى الوحدة لا يكفي، فهناك حاجة ماسة لوجود جهاز شعبي. « ومهما يكن من أمر، فإن الحاجة إلى جهاز قومي، يتفرغ للدعوة إلى الوحدة، ويعمل في سبيلها، ويقوم بمختلف المساعي والاتصالات في مختلف أجزاء الوطن، ومع مختلف هيئاته الشعبية والحكومية، تظل شديدة كحاجتها إلى دولة تتبناها، حيث يكون الجهاز عضداً شعبياً لهذه الدولة »[١١٠].

ويقترح الأستاذ دروزة ثلاث صيغ لسد هذا الفراغ:

الأول: « أن يأخذ المكتب الدائم لمؤتمر الخريجين الجامعيين على عاتقه ذلك، ويتفرغ له ».

الثاني: أن تتألف لجنة في البرلمان السوري من كل الاتجاهات لخدمة هذه الغاية.

الثالث: أن تتألف «لجنة الوحدة العربية» في مصر أو سوريا، من عدد غير كبير من القوميين البارزين، وتختار مكتباً دائماً، وتكون فروعاً في الأقطار.

ولقد سعى الأستاذ محمد عزة دروزة إلى بناء هذا التنظيم، بعد النكبة، وعلى أساس الدعوة لاتحاد سوريا والعراق. ثم تبنى الدعوة لوحدة سوريا ومصر، وشجعه على ذلك قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو (تموز). واتصل من أجل ذلك بالعديد من زملائه في الحركة القومية، ومنهم أحمد قدري وبهجة الشهابي وعبدالقادر الميداني وغيرهم. ولكن الجهود لم تؤد إلى تحقيق هذه الغاية[١١١].

وعلى الرغم من قناعة محمد عزة دروزة بالوحدة الكاملة، واصراره عليها، طوال حياته، فإنه كان يرى أن الظروف لا تسمح بتحقيق الوحدة الشاملة، ولذلك دعا إلى الاتحاد، وقدم مشروعاً اتحادياً.

ولقد كان يرى في الاتحاد خطوة على طريق الوحدة، ولم يكن يراه حلاً نهائياً، ولا كان يعتبره مشروعه، إنما كان يلجأ إليه، لزيادة التفاعل القومي، ورد المخاطر الخارجية.

ومن هذا المنطلق أيد مشروع الاتحاد بين سوريا والعراق في أوائل الخمسينات، وأيد مشروع الاتحاد بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٦، وأيد وحدة مصر وسوريا سنة ١٩٥٨، معتبراً أنها تجاوزت كل ما كان متوقعاً. وظل وفياً للوحدة، عند حدوث الانفصال، حتى انه قاطع زميلاً عزيزاً عليه، مثل شكري القوتلي، لأنه أيد الانفصال، سنة ١٩٦١[١١٢].

- ٦ -

وبعد هذا كله، كيف كان موقف محمد عزة دروزة من طبيعة السلطة، وعلاقة السلطة بالجماهير والنظام الاقتصادي؟

إننا هنا، في وضع لا يسمح لنا بالخوض في كل هذه القضايا، ولكننا نجد من الضروري أن نقدم إشارات لا بد منها.

أولاً: ان الأستاذ دروزة أعلن قناعته، بأن «الحالة السيئة» التي وصفها، « لا يمكن اصلاحها إلا بحركات انقلابية جريئة... »[١١٣] وكان يتحدث عن الحركات الانقلابية في سوريا (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢) وثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ في مصر.

ثانياً: ان النظام الذي يؤيده لدولة الوحدة هو النظام الجمهوري اللامركزي. وهو يرى أن: « القول بأن النظام الملكي أضمن للاستقرار قول جزاف». لأن «الخلاص من الرئيس المنتخب، إذا ظهر فساده، أسهل بكثير من الخلاص من الملك ». أما المركزية « فمن شأنها، أن تشل البلاد، وتعرقل حركتها الاقتصادية والعمرانية، بسبب سيطرة المركز، وما تؤدي إليه، من مطل وإهمال، وما قد تفسح له من مآرب ومحاباة وشهوات... »[١١٤].

ثالثاً: ان النظام الذي يؤيده نظام برلماني، ولكنه يؤيد « الحياة النيابية المحدودة التي تسمح للحكومات بسلطات واسعة... » وذلك هو: « الأفضل الآن، بسبب حاجة البلاد العربية إلى الاستقرار، والاسراع في الخطوات الاصلاحية والتجديدية». ويعزو ذلك إلى كون الحياة النيابية في بلادنا مسخ مشوه. ولذلك فإنه يرى من: «الأفضل أن يكون النظام النيابي جامعاً بين حق رقابة الأمة على السلطات التنفيذية، وبين تمتع هذه السلطات بصلاحيات واسعة... »[١١٥].

رابعاً: ان هذا النظام يجب أن يكفل: « حرية الرأي والنقد والنشر والاجتماع والعمل »... وهذه: « يجب أن تكون في كل حال مطلقة إطلاقاً تاماً لا يقيدها إلا حرية الغير، وحقه وكرامته والمصلحة القومية العليا »[١١٦].

وكان قد أوضح موقفه هذا من الحريات في الخطوط العامة لمشروعه الاتحادي، فضمّنه بندين، يشير في أولهما إلى هذا الحق بالصيغة التالية:

« يضمن الاتحاد لجميع المواطنين، في الدول الأعضاء الحريات والحقوق الشخصية التي تكفلتها شرعة حقوق الإنسان العالمية، أو التي جرى العرف عليها، وأقرتها دساتير العالم ». وتقول الثانية: « يضمن الاتحاد لجميع الأديان والمذاهب في الدول المتحدة تقاليدها الخاصة، وأنظمتها العائدة لأحوال اتباعها الشخصية، على أن لا يتنافى ذلك مع الوحدة القومية، ومصلحة الدول المتحدة »[١١٧].

خامساً: ان النظام الاقتصادي الذي يدعو إليه، هو النظام الاشتراكي، لأن: « الاشتراكية المعتدلة الوطنية، هي خير المناهج ». وهو يعني بالاشتراكية المعتدلة التي: « تهدف إلى إزالة أو تخفيف الفروق العظيمة بين الناس في الثروة والملك والمراتب الاجتماعية، وحق الاستمتاع بنعم الله في كونه على التساوي، والمساواة التامة الفعلية في الحقوق والواجبات العامة، وسيطرة الدولة على المرافق والمنشآت العامة التي لها مساس بمصالح الجمهور وحياته... والحيلولة دون استغلال العمال والفلاحين واضطهادهم وارهاقهم، وتوفير أسباب العلم والصحة والعمل، والحياة المعقولة لكل الطبقات، وكفالة العاجزين عن الكسب من الشيوخ والأطفال والمرضى... »[١١٨]. وهو يقبل بالاشتراكية هذه، ولكنه لا يقبل الشيوعية، لأنها تتنكر

« للكرامة القومية والمصلحة القومية والتقاليد القومية » ولأنها تحارب: « الملكية والحيازة إطلاقاً. . » ولأنها أيضاً تسخّر: « الفرد تسخيراً شديداً. . . »[١١٩]. وفوق هذا، فإن الاشتراكية التي يدعو إليها، هي ما ينص عليها القرآن[١٢٠].

وبهذا يكون محمد عزة دروزة متقدماً على أبناء جيله من رواد الحركة القومية، ومواكباً لحركة الأجيال التالية، ولقد شغلته قضية الوحدة، ولكن آلام الجمهور كانت تشغله[١٢١] وكان يشغله مشروع إصلاحي اجتماعي[١٢٢].

- ٧ -

ولا بد لنا، قبل أن نصل الختام، من وقفة مع محمد عزة دروزة في دوره الفلسطيني. فالرجل ولد في فلسطين، وعاش أيام طفولته وشبابه ومعظم كهولته فيها. فمند ١٨٨٧، حين ولد، إلى سنة ١٩٣٧، حين غادر فلسطين في جولة، ولم يعد، فترة خمسين عاماً طويلة. قضى معظمها في فلسطين. ما عدا سنوات بين ١٩٠٨ و ١٩١٨ قضاها في بيروت والنبك (سوريا) وحوالى سنة قضاها في دمشق (أوائل حزيران/ يونيو ١٩١٩ - ٢٣/ ٧/ ١٩٢٠). وقضى من هذه السنوات الخمسين سنواته الأولى ١٨٨٧ - ١٩٠٦ في نابلس، وكذلك السنوات (١٩٢٠ - ١٩٣٧).

وكان خلال هذه الحقبة الطويلة، لا ينقطع عن نابلس، حتى وهو خارجها لوجود أهله فيها، ولأن الحدود في ظل الامبراطورية العثمانية كانت مفتوحة، ولم تكن سوريا أو لبنان أقطاراً مستقلة.

ولذلك، فإنه في مذكراته يخص صفحات طويلة لوصف نابلس: مدارسها وحماماتها وعاداتها، كما يذكر أصدقاءه وزملاءه فيها، ممن حافظ على مودتهم أيام النضال[١٢٣].

ولم يكن غريباً، أن يعود إلى نابلس، بعد مغادرة بيروت، سنة ١٩١٨، وأن يستقر هناك، حتى يطرد من عمله، ويمنع من العودة سنة ١٩٣٧.

فكيف كان موقفه النضالي في فلسطين؟

هنا أيضاً نكتشف الأبعاد القومية النضالية لشخصية محمد عزة دروزة. وقد تجلى ذلك فيما يلي:

أولاً: ظل محمد عزة دروزة، وهو منهمك في النضال، كل أشكال النضال، يرى قضية فلسطين قضية عربية. لأن الصفقة التي تمت بين الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية، جاءت نتيجة لسياسة الامبراطورية البريطانية التي كانت: « تترسم تشميل هيمنتها على بلاد العرب، وإبقاءها مجزأة ضعيفة لضمان نفوذها، واستغلالها لثروات هذه البلاد ومركزها، فانعقدت الصفقة بينهم (أي الصهيونيين) وبينها (أي بريطانيا) على تنفيذ ذلك بالحديد والنار »[١٢٤]. ولذلك فإن الأستاذ دروزة يعتبر وعد بلفور: « أشد الضربات وأوجعها، وأبعدها نكاية وأثراً في كيان العرب وأهدافهم ». وهي ضربة:

« وجهها الانكليز للعرب وحركتهم القومية الحديثة ». وفلسطين بالنسبة له « عقدة الصلة بين الأقطار العربية الشمالية والجنوبية. . . واتصال هذه الأقطار ببعضها اتصالاً لا تقاطع فيه، من أهم مميزات القضية العربية وعناصرها »[١٢٥].

وهدف هذه السياسة البريطانية ـ الصهيونية: « قلع جذور العرب وهدم كيانهم في فلسطين العربية أولاً، وفي امتدادات تلك الحدود المجاورة لها بعد ذلك. . . ونشوب صراع شديد ومديد بين العرب واليهود، وحفز هؤلاء إلى الحيلولة، دون قيام كيان عربي قومي وموحد، ودون أي تقدم عربي في ميادين السياسة والاقتصاد والصناعة والتجارة. . . »[١٢٦].

فلسطين، إذاً، جزء من الوطن، وعقدة الوصل بين جناحيه، وقيام الكيان الصهيوني مكيدة امبريالية موجهة للعرب كلهم، لا للفلسطينيين منهم. ولقد ظل هذا الموقف ثابتاً لدى أستاذنا، فلم يتغير، ولم يتبدل، حتى بعد قيام المقاومة الفلسطينية، وغلبة الاتجاه القطري فيها. وسنجد هذا واضحاً في كل أعماله، من سعيه لبناء حزب قومي، كل حياته، إلى تأييده المستمر لدعوات الوحدة[١٢٧].

ويبدو هذا واضحاً في الكلمة التي ألقاها في القصر الجمهوري بدمشق، عندما ذهب للتهنئة، بالوحدة، مع جمع من اخوانه الفلسطينيين، بتاريخ ٥/ ٢/ ١٩٥٨. قال في هذه الكلمة:

« إن فرحة أبناء سورية الجنوبية يا فخامة الرئيس الجليل مزدوجة. فهي من جهة فرحة العربي الذي يرى في الوحدة السبيل الصحيح الوحيد إلى مجد العرب وكرامتهم وعزتهم وتكاملهم وازدهارهم وانخساء الطامعين والكائدين عنهم، وزوال الحواجز المصطنعة التي تشل نشاطهم، وتضيق آفاقهم. . . ».

« وهي من جهة أخرى، تحمل لهم البشرى بقرب انهيار المسخ الذي قام في أراضيهم. . . »[١٢٨].

في الوحدة، عند محمد عزة دروزة، مجد العرب، وبها تحرير فلسطين. وهذه القناعة لم تفارقه كل حياته.

ثانياً: ولكن محمد عزة دروزة، لم يكتف بالدعوة للوحدة، وبالنضال من أجلها. بل قام بدور نضالي في فلسطين، فأسهم منذ البدء، بتأسيس الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية، وشارك في المؤتمرات الوطنية، كما بيّنا. ولما أقنعته التجربة أن الحركة الوطنية بحاجة إلى حزب سياسي، بسبب تفككها وتناقضها وعجز قياداتها، بادر، هو ونفر من الاستقلاليين القوميين، إلى إنشاء حزب الاستقلال العربي، سنة ١٩٣٢، حيث كان من أبرز أعضائه.

وكان الهدف من إنشاء الحزب السعي للخروج من حالة التفكك والتنافر، و «تكثيف الجهود» والعمل «في نجوة من التشادّ المنغص المعطل»، لتحرير الحركة الوطنية من فتورها، وتوجيه النضال، ضد الانكليز، باعتبارهم «أصل الداء ورأس البلاء»، وعدم الاكتفاء برفع شعار محاربة الصهيونية[١٢٩].

وجاء في قانون الحزب: المادة ٣ ـ مبادىء الحزب.

١ ـ استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً.
٢ ـ البلاد العربية، وحدة تامة لا تقبل التجزئة.
٣ ـ فلسطين بلاد عربية، وهي جزء طبيعي من سوريا.

وكان من أهداف الحزب:

١ ـ العمل على تحقيق المبادىء الواردة في المادة السابقة، بما يستطيعه بنفسه، وبالاشتراك مع الهيئات الاستقلالية في الأقطار العربية.
٢ ـ الاحتفاظ بأراضي البلاد ومنابع الثروة للعرب.
٣ ـ إلغاء الانتداب ووعد بلفور.
٤ ـ إقامة حكم عربي برلماني في فلسطين.
٥ ـ إنهاض البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً[١٣٠].

ولم يعش الحزب طويلاً، إذ إنه توقف عن العمل، بعد حوالى سنتين. ولكنه أسهم في تطوير الحركة الشعبية، وتأجيج الحماسة لمواجهة الاحتلال البريطاني: منذ أواخر سنة ١٩٣٣ [١٣١].

لقد كان مع الجبهة العريضة دائماً، وضد التهاتر والتنافر داخل صفوف الجبهة الوطنية. وكان يدعو إلى الوحدة دائماً، وينتقد الأساليب التي تعرّض الوحدة الوطنية للتفكك. وكان من أسباب إنشاء حزب الاستقلال، البحث عن صيغة عمل متماسكة.

ولقد بذل الأستاذ دروزة جهوداً مهمة لتكوين اللجنة العربية العليا، سنة ١٩٣٦. واستقال سنة ١٩٤٧، من الهيئة العربية العليا، لعدم موافقته على أساليبها[١٣٢].

وكان، خلال هذه الفترة (١٩١٩ ـ ١٩٣٧) يعمل مديراً لمدرسة النجاح، ثم مديراً لأوقاف نابلس، وبعدئذ مديراً عاماً للأوقاف في القدس، وهو يشارك في كل النشاطات السياسية. وكان يسهم أيضاً في كتابة الكتب التربوية، والمقالات السياسية والاجتماعية في الصحف.

لقد كان دائباً لا يهدأ، وعاملاً لا يكل.

وحين منع من العودة إلى فلسطين، واصل نشاطه بلا كلل من دمشق، فظل يكتب وينظم، ويقوم بالمهمات السياسية والإدارية، بلا تردد أو توان.

ثالثاً: وحين قامت المقاومة، سنة ١٩٦٥، أيدها، ودعا إلى تأييدها. وأقام علاقات مع فصائلها، ولكن دون أن يصبح طرفاً في خلافاتها. ولقد ظل، حتى لحظاته الأخيرة، مع التحرير. ولذلك أكد في أكثر من برقية من برقياته إلى بعض الرؤساء على: « تحرير جميع الأرض المغتصبة، وطرد المعتدين منها. وتحقيق حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة في وطنه السليب ». وكان في أحيان أخرى يقول: « حتى يتم النصر الأكبر، وتتحرر الأرض المحتلة وجميع فلسطين... »[١٣٣].

لقد خاض محمد عزة دروزة في فلسطين غمار العمل التنظيمي والسياسي، واعتنى بنشاط الجماهير، من العريضة، إلى التظاهر، إلى الاضراب، إلى العمل المسلح. ولكنه كان يرى التحرير في الوحدة القومية. ولذلك رفع رايات النضال القومي في فلسطين.

وبعد. . . هل وفينا الرجل حقه؟

إنها مجرد إشارات، على الطريق. وستزيد المختارات التي نقدمها من معرفة القارىء العربي بالمناضل القومي الجليل. ولكن الرجل، لن يعرف جيداً، حتى تنشر كل أعماله، وحتى يقوم المؤرخون بدراسات كتاباته التاريخية، والمنظرون القوميون أطروحاته القومية، والمفسرون تفسيره، والساسة والمفكرون السياسيون نهجه السياسي، والمربون نشاطاته وأفكاره التربوية.

من ينشر كتبه المنشورة وغير المنشورة؟

لم يقدم أحد حتى الآن على نشرها، إلا في حدود ضيقة. لأن المذكرات التي خلفها، والتي اقترح أن تكون ثلاثة وعشرين جزءاً، لم ينشر منها إلا جزءان، ولذلك اقترحنا أن تتكون لجنة من مريديه، ومن مناصري فكره القومي، تتولى جمع الأموال اللازمة لنشر مؤلفاته، والإشراف على جمعها وتدقيقها وطبعها. ونأمل أن يعلن تكوين هذه اللجنة، قبل الاحتفال بذكرى ولادته المئوية، في حزيران/ يونيو من سنة ١٩٨٧.

على كل حال: إن هذه المختارات، ستسد ثغرة، ولكنها لن تحل مشكلة التعرف على الرجل الكبير، وتجربته القومية الكبيرة.

هوامش المدخل

(١) حسين عمر حمادة، **محمد عزة دروزة**، سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني (بيروت: اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين؛ دار قتيبة، ١٩٨٢)، ط ٢ (دمشق، ١٩٨٣).

(٢) محمد عزة دروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و ١٨٨٧ ـ ١٩٨٤** (الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار والمركز الجغرافي الفلسطيني، ١٩٨٥)، وقد صدر الجزء الثاني سنة ١٩٨٥.

(٣) أعادت المكتبة العصرية طباعة كتاب **تاريخ الجنس العربي، والعرب والعروبة في حقبة التغلب التركي**، ونشرت دار الجليل كتاب: **المرأة في القرآن والسنّة**، عام ١٩٨٥.

(٤) علي ناصر الدين (١٨٨٨ ـ ٢٩ / ٤ / ١٩٧٤): مناضل قومي، ولد في قرية بمريم، قرب حمانا، والده محمود ناصر الدين، درس في الكلية العثمانية في بيروت لصاحبها أحمد عباس الأزهري. غادر سنة ١٩١٢ إلى باريس، وانتقل منها إلى إفريقيا. عاد مع إعلان الثورة العربية لتحرير الوطن، واعتقله الفرنسيون بعد احتلال لبنان ونقل إلى أرواد. أصدر صحيفة **المنبر** سنة ١٩٢٢، فأغلقت قبل أن تكمل عامها الأول. نفي إلى فلسطين سنة ١٩٢٤، حيث ظل إلى سنة ١٩٢٨، وهناك كتب في جريدة **الكرمل** المعادية للصهيونية. عاد إلى لبنان، ثم نفي إلى فلسطين ثانية.

شارك سنة ١٩٣١ في المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس، وفي الدعوة للمؤتمر القومي العربي. اعتقله الفرنسيون سنة ١٩٣٩، وظل مسجوناً إلى سنة ١٩٤٣. أسهم سنة ١٩٤٧ في إنشاء جيش الانقاذ، وأسهم في معارك عديدة في فلسطين، ولكنه، بعد ١٩٤٨، أصيب بمرض مقعد. أنشأ سنة ١٩٥٥ دار الحكمة ليعيد كتابة التاريخ العربي، ولكن المرض منعه من مزاولة العمل. وكان قد أنشأ، بعد الاحتلال الفرنسي عصبة تكريم الشهداء التي ما زالت موجودة.

من كتبه: **قضية العرب** (صدر ثلاث مرات ١٩٤٦، ١٩٥٥ و١٩٦٣)، **وهكذا كنا نكتب** (١٩٥٢)، وهو يضم مجموعة من مقالاته المنشورة بين ١٩٢٤ ـ ١٩٤٦. وله كتب وكراسات أخرى وترجمات. عرف بالتزامه القومي وترفعه الخلقي. انظر: عصبة تكريم الشهداء، **المجاهد علي ناصر الدين: صفحة مشرقة من التاريخ القومي العربي الحديث**.

(٥) أخبرنا زهير دروزة، ابن المترجم له، ان رسالتين كتبتا في جامعة الأزهر حول تفسيره القرآن، ولكنا لم نطلع عليهما.

(٦) عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس، في: **المفيد**، ١١ / ١١ / ١٩١١، و ٢٩ / ١١ / ١٩١١. وفي عدد ١١ / ١١، حديث عن «شاب من شباب نابلس، يحق لكل عربي متنور أن يفخر بمثله، كيف وهو ذلك الشاب المفكر عزة دروزة الذي يسعى سعياً حثيثاً لإحياء اللغة العربية، وبث روح الوطنية، وينبه الشبيبة للعلم، ويحرض كبار القوم لافتتاح المعاهد العلمية...». ويشير كاتب المقالة إلى أن «محمد عزة دروزة، جمع بعض متنوري التلامذة النابلسيين» ومثلوا «رواية وفاء العرب الشهيرة» ويضيف: «وقد أثرت كلمات وأفعال ذلك الفتى الغيور المتثبت في نفوس بعض متنوري كبار قومه، فنهضوا وشكلوا جمعية وطنية لتقوم بالمشاريع الخيرية، وصمموا على افتتاح مدرسة أهلية راقية...». وجاء في عدد ٢٩ / ١١: ان المنتدى الأدبي في الآستانة الذي كان مركزاً من المراكز القومية، قد قرّر توحيد التعليم في البلاد العربية، ومنها نابلس، من أجل هذا الغرض. وكان انشاء اللجان العلمية، ضمن هذا الاطار. ويشير الأستاذ دروزة في مذكراته أنه لا يذكر ذلك. انظر: دروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و ١٨٨٧ ـ ١٩٨٤**، ص ١٨٤ ـ ١٨٥. ويشير الأستاذ دروزة إلى الحصول على رخصة المدرسة، سنة ١٩١٠ (المصدر نفسه، ص ١٨٣)، كما يتحدث عن إنشاء الجمعية وعن تمثيل الرواية التي يظن أنها رواية السجين (ص ١٨٤)، وربما كانت مسرحية أخرى غير التي كتبت عنها **المفيد**. وقد يكون

الأستاذ دروزة نسي التاريخ والرواية، لأن خبر **المفيد** منشور سنة ١٩١١، وليس سنة ١٩١٠، كما جاء في المذكرات.

(٧) دروزة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧. ويشير الأستاذ دروزة أنه كتب برقية نابلس للمؤتمر العربي الأول، ولكن أشير عليه ألاّ يضع اسمه فيها لأنه موظف حكومة. يقول في المذكرات: «وكانت برقية نابلس موقعة بتوقيع رفاقنا الأربعة. وأنا الذي كتبتها وأسجل هذا للواقع. وقد ألحوا علي بعدم توقيعها، لأني كنت موظفاً». (ص ٢٠٣).

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(١٠) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط ٩ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥)، ص ١٠٤. انعقد المؤتمر الأول في ٢٧/ ١ ـ ١٠/ ٢/ ١٩١٩. ضم المؤتمر ٢٧ مندوباً وجاء في تقرير دائرة الاستخبارات البريطانية أن ١٢ منهم كانوا من انصار الوحدة العربية، وكان أبرزهم السيدان عزة دروزة ويوسف العيسى. المصدر نفسه، ص ١٠٤ ـ ١٠٥. انظر أيضاً لمحمد عزة دروزة: **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات** (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠)، ص ٣٥ ـ ٣٦، **ومائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و١٨٨٧ ـ ١٩٨٤**، ج ٢، ص ٣٥ ـ ٣٧، وص ٤١ حول الاتجاه القومي في المؤتمر المشار إليه أعلاه.

(١١) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠**، ط ٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢)، انظر حول المؤتمر السوري، ص ١٠٤ ـ ١٥٧، ونص الدستور، ص ٢٩١.

(١٢) جاء ذلك في النبذة التي كتبها عن نفسه، والتي أشرنا إلى أننا سنعتمد عليها (ص ٦)، كما في: حمادة **محمد عزة دروزة**، ص ٢١، ودروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و ١٨٨٧ ـ ١٩٨٤**، ج ٢، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(١٣) حول حكم الإعدام، انظر: النبذة التي أشرنا إليها (ص ١٢)،وحمادة، المصدر نفسه، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(١٤) حول المؤتمر الإسلامي، انظر: دروزة، المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٦؛ الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢، وناجي علوش، **المقاومة العربية في فلسطين، ١٩١٧ ـ ١٩٤٨**، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ٥٧.

(١٥) حول المؤتمر العربي، انظر: دروزة، المصدر نفسه، ص ٨٧ ـ ٨٩؛ الكيالي، المصدر نفسه، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤، وعلوش، المصدر نفسه، ص ٥٩.

(١٦) حول حزب الاستقلال، انظر: دروزة، المصدر نفسه، ص ١٠٣ ـ ١١٠؛ الكيالي، المصدر نفسه، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨، وعلوش، المصدر نفسه، ص ٦٢.

(١٧) حمادة، **محمد عزة دروزة**، ص ٢٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(١٩) حول مؤتمر بلودان، انظر: دروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و١٨٨٧ ـ ١٩٨٤**، ص ١٨٣ ـ ١٨٥، والكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧.

(٢٠) حمادة، المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٤٠.

(٢١) **الحقيقة**: أسسها أحمد عباس الأزهري، وصدرت في ٦ شباط ١٩٠٩. انظر: فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج ٤، ص ١٠.

(٢٢) **الاخاء العثماني**: أصدرها محمد شاكر الطيبي في ١٩/ ٨/ ١٩١١. انظر: المصدر نفسه، ص ١٢.

(٢٣) **الكشاف**: مديرها المسؤول محمود أحمد العيتاني. أصدرها مقر الكشاف العام في بيروت. وهي مجلة شهرية مصورة، سنتها عشرة أشهر.

(٢٤) **المرأة الجديدة**.

(٢٥) **القاهرة**.

(٢٦) **الجامعة العربية**: يومية، صاحبها ومحررها منيف الحسيني، صدرت في ٢٠/ ١/ ١٩٢٧. كانت جريدة الحزب العربي. انظر: يوسف خوري، **الصحافة العربية في فلسطين، ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين)، ص ٥٨.

(٢٧) **العرب**: أسبوعية صدرت في ٢٧/ ٨/ ١٩٣٢، صاحبها ومحررها عجاج نويهض، كانت لسان حال حزب الاستقلال، وتوقفت سنة ١٩٣٤. انظر: المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٢٨) الفونس ماري لوي دي لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩): شاعر وروائي فرنسي، اشتغل بالسياسة، نشر سنة ١٨٢٠ أول ديوان له بعنوان «خواطر شعرية». كان معتدلاً يؤمن بمبادىء الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسلام العالمي ولم ينتسب إلى حزب. صار رئيساً للحكومة المؤقتة. نافس نابليون الثالث ثلاث مرات على رئاسة الجمهورية ففشل، وقرر اعتزال السياسة. من آثاره **اعترافات** (١٨٤٩).

(٢٩) جبرائيل كمبايره COMPAYREG (١٨٤٣ ـ ١٩١٣): ولد في مدينة آلبي في فرنسا. دخل دار المعلمين العالية وصار معلماً للفلسفة في المدارس الثانوية ومعلماً للتربية في مدارس المعلمين والمعلمات. ثم عيّن مدرساً لتاريخ التربية في جامعة تولوز. ترك التعليم سنة ١٨٨١ واشتغل بالسياسة. فاز مرتين في الانتخابات ولكنه فشل في المرة الثالثة سنة ١٨١٩، فعاد لعمله، وصار مديراً للمعارف، ثم مفتشاً عاماً للمدارس الثانوية حتى سنة ١٩١٣. من مؤلفاته: **تاريخ المذاهب التربوية في فرنسا** (١٨٧٩)؛ **تطور الطفل العقلي والخلقي**؛ **فن التربية**؛ **أصول التدريس**؛ **علم النفس**؛ **تاريخ التربية**، **وأصول إدارة المدارس**. ويشير أبو خلدون (ساطع الحصري) في مقدمة الكتاب، إلى أن الكتاب ترجم «بشيء من التصرف». انظر: جبرائيل كمبايره، **القسم النظري من كتاب دروس في فن التربية**، نقله عن الفرنسية بشيء من التصرف محمد عزة دروزة (نشر محلقاً بمجلة **التربية والتعليم** (١٩٢٨)، ص (أ) و (ب)).

(٣٠) أرنولد توماس (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠): مستشرق بريطاني، درس في كمبردج وعمل أستاذاً للفلسفة بجامعة عليكرة في الهند. أول أستاذ في قسم الدراسات الشرقية بلندن. تتسم كتاباته عن تاريخ الإسلام بالحياد والانصاف. من كتبه: **دعوة الإسلام** (١٨٩٦). انظر: محمد شفيق غربال، **الموسوعة العربية الميسرة** (دار الشعب؛ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ص ١٢٥.

(٣١) ـ عمر حمد (١٨٩٣ ـ ١٩١٦): من شهداء الحركة القومية. أصله من مصر، ولد في بيروت، ودرس في الكلية الإسلامية. عمل ضابطاً في الجيش العثماني وفرّ مع العريسي والشهابي. ألقي القبض عليه في مدائن صالح، وأعدم في السادس من أيار ١٩١٦. له ديوان شعر، ومقالات صحفية. انظر: غربال، المصدر نفسه، ص ١٢٣٧، وأدهم الجندي، **شهداء الحرب العالمية الكبرى** (دمشق: مطبعة العروبة، ١٩٦٠)، ص ١١٥ ـ ١١٧.

ـ عبدالغني العريسي (١٨٩١ ـ ١٩١٦): مناضل قومي. ولد في بيروت، ودرس في الكلية الإسلامية، ثم ذهب إلى فرنسا لاستكمال دراسته (١٩١٢ ـ ١٩١٣)، أصدر **المفيد** (١٩٠٩ ـ ١٩١٥) مع فؤاد حنتس، ثم عارف الشهابي. كان من قادة العربية الفتاة، ومن أبرز المشاركين في المؤتمر العربي (١٩١٣) في باريس. ألقي القبض عليه أعدم سنة ١٩١٦. انظر: غربال، المصدر نفسه، ص ١٢١٠؛ عبد الغني العريسي، **مختارات المفيد**، جمعها وقدم لها ناجي علوش (بيروت: دار الطليعة)، والجندي، المصدر نفسه، ص ١١٨ ـ ١٢٠.

ـ عارف الشهابي (١٨٨٩ ـ ١٩١٦): مناضل قومي. ولد في حاصبيا، ودرس في دمشق والآستانة. احترف المحاماة. من مؤسسي العربية الفتاة وقادتها. اشترك مع عبد الغني العريسي في إصدار **المفيد**، بعد وفاة فؤاد حنتس. ألقي القبض عليه مع عمر حمد والعريسي في مدائن صالح وأعدم في ٦ أيار سنة ١٩١٦. انظر: غربال، المصدر نفسه، ص ١٠٩٧، والجندي، المصدر نفسه، ص ١٢١ ـ ١٢٥.

(٣٢) صلاح القاسمي (١٣٠٥ هـ ـ ١٣٣٤، ١٨٨٧ ـ ١٩١٦): ولد بدمشق، وتربى في كنف أخيه العلامة جمال الدين القاسمي. أسهم في تأسيس جمعية النهضة العربية، وكان أمين سرها. درس الطب وسافر إلى الحجاز، وتوفي في الطائف سنة ١٩١٦ قبل إعلان الشريف حسين الثورة.

(٣٣) حمادة، **محمد عزة دروزة**، ص ٤٧، ودروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و١٨٨٧ ـ ١٩٨٤**، ص ١٤٢ و١٨٨.

(٣٤) حمادة، المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٣٥) دروزة، المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٣٦) حمادة، المصدر نفسه، ص ٥٠. وكان يرى ضرورة أن يكون «للتربية الأخلاقية والاجتماعية والتنظيمية والروحية حيز كبير في المناهج والتنظيمات المدرسية». انظر: محمد عزة دروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية** (دمشق: دار اليقظة العربية، ١٩٥٢)، ص ١٣.

(٣٧) النبذة التي كتبها عن نفسه (ص ٢٣)، وحمادة، المصدر نفسه، ص ٥١.

(٣٨) وليام د. كليفلاند، **ساطع الحصري: من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، تعريب فكتور سحاب (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣)، ونعيم عطية، «معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الأخيرة،» ورقة قدّمت إلى: الجامعة الأميركية في بيروت، هيئة الدراسات العربية، **الفكر العربي في مائة سنة**، بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦، منشورات العيد المئوي (بيروت: الجامعة، ١٩٦٧)، ص ٣٩٧ ـ ٥٦٧. وفي البحث اهتمام بساطع الحصري تربوياً.

(٣٩) كليفلاند، المصدر نفسه، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٤٠) زكي الأرسوزي، **المؤلفات الكاملة**، مج ١ (١٩٧٢)، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢، وسليم ناصر بركات، **الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي**، ط ٣ (١٩٨٤)، ص ٢٠٦.

(٤١) علي ناصر الدين، **قضية العرب**، ط ٣ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٦٣)، ص ٥١.

(٤٢) محمد فريد أبو حديد، **أمتنا العربية** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥)، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٤٣) درويش المقدادي، **تاريخ الأمة العربية**، ط ٣ (بغداد: مطبعة المعارف، ١٣٥٣هـ)، ص ٨ ـ ٩.

(٤٤) محمد عزة دروزة: **دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة إلى الآن**، ط ٥ (حيفا: المكتبة الوطنية العربية، ١٣٥٣هـ)، ص ١ ـ ١٢؛ **مختصر تاريخ العرب والإسلام**، ٢ ج (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٢٣)، ج ١، ص ١٧ ـ ١٨؛ **الوحدة العربية** (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٧)، ص ٣٠ ـ ٣١، و**نشأة الحركة العربية الحديثة** (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧١)، ص ٢٠ ـ ٢١.

ملاحظة: اكتشفنا، خلال المراجعة، ان الأستاذ محمود كامل المحامي، قد تناول علاقة العرب بالأقوام «السامية» في كتابه: **الدولة العربية الكبرى**، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦)، وقد تناول الموضوع في مقال له نشر سنة ١٩٤٥. ويقدم الأستاذ محمود آراء العديد من المؤرخين الأجانب بهذه القضية، كما فعل الأستاذ محمد عزة دروزة.

(٤٥) جرجي زيدان، **العرب قبل الإسلام** (بيروت: المكتبة الأهلية).

(٤٦) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ٩ ج (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨ ـ ١٩٧١)، ج ١.

(٤٧) حمادة، **محمد عزة دروزة**، ص ١٥ ـ ٤٦.

(٤٨) أشرنا إلى ذلك في مكان سابق.

(٤٩) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٥٥٣، وكان قد انتقد ضعف التنظيم أكثر من مرة (ص ٣٩٧ و٣٨٣). يمكن أيضاً مراجعة كتابه: **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ٨٤.

(٥٠) حمادة، المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٥١) محمد عزة دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ٦ ج (صيدا: المطبعة العصرية، ١٩٥٩)، ج ١، ص ٩.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٧، ودروزة: **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٢٠، و **الوحدة العربية**، ص ٢٦.

(٥٣) دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ص ١١ ـ ١٢.

(٥٤) المصدر نفسه، هامش ص ١٣ .

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٦ .

(٥٦) دروزة، **دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة إلى الآن**، ص ٤ .

(٥٧) دروزة: **تاريخ الجنس العربي**، ص ٢٠، **ومختصر تاريخ العرب والإسلام**، ص ١٧ .

(٥٨) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٤٣ .

(٥٩) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٢٦ .

(٦٠) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ١٤٤ .

(٦١) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٦٢) دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ص ٨ .

(٦٣) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ١٦ ـ ١٧ .

(٦٤) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ١٣ .

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٥٨ .

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٢٦ .

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٣٠ .

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٤٧ .

(٦٩) لم تتوافر للأستاذ محمد عزة دروزة الكتب التي صدرت باللغات الأجنبية، وخاصة الألمانية والإنكليزية والفرنسية. لأنه لا يقرأ الإنكليزية والألمانية، ومع أنه يقرأ الفرنسية، فإنه لم يشر إلى مراجع في هذا المجال. ثم أن الكتب التي ترجمت في السنوات العشر الأخيرة، لم تثبت بين مراجعه.

(٧٠) حول اللغات السامية، انظر: رمضان عبد التواب، **فصول في فقه اللغة العربية** (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٣)، ص ٣٨ ـ ٦٣ .

(٧١) جوزيف ستالين، **الماركسية والمسألة القومية**.

(٧٢) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٢٦ .

(٧٣) المصدر نفسه، ص ١٤٤، ودروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ١٤ .

(٧٤) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٧٦) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٢٦ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٤٣ ـ ٤٤، ودروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ١٤ .

(٧٨) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٥٠ ـ ٥٧، والهامش ص ٥٢ . ويجدر بنا أن نقرأ مقال الأستاذ محمد عزة دروزة حول العامية والفصحى في: **الزهراء** (لمنشئها محب الدين الخطيب)، مج ٣ (١٣٤٥ هـ)، ص ١١٦ ـ ١٢٣ .

(٧٩) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٥٨ ـ ٧٤، والهامش ص ٥٨ .

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٨٣ .

(٨١) المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٨ .

(٨٢) دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ج ١، ص ١٧ .

(٨٣) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٣٩ ـ ٥٥ .

(٨٤) دروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ٦٣ .

(٨٥) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، هامش ص ٣٩.

(٨٦) دروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ٦٤.

(٨٧) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٩٠ ـ ٩٧.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٩٨ ـ ١٠١.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٠٢ ـ ١١٠.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ١١١ ـ ١١٥، والاقتباس ص ١١٢.

(٩١) المصدر نفسه، ص ١٥٤ ـ ٣٣١، ومنذر معاليقي، «محمد عزة دروزة في صراع العرب والأتراك، ومن خلال كتابه: نشأة الحركة العربية الحديثة،» **الكاتب العربي**، السنة ٤، العدد ١٣ (١٩٨٥)، ص ٧٥ ـ ٨٤.

(٩٢) دروزة، المصدر نفسه، ص ٣٤١ ـ ٤٠٢.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٦ ـ ٥٤٥.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٠ ـ ٥٦٢، والاقتباس ص ٥٥٣.

(٩٥) دروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ٢٦.

(٩٦) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٥٥٨.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٥٥٨، والاقتباس ص ٥٦٢.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٥٦٣.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٥٦٣.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٥.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٨.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٠. وكان نديم البيطار قد حاول استخلاص قوانين الوحدة في التاريخ، انظر: نديم البيطار، **من التجزئة . . . . إلى الوحدة: القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩).

(١٠٥) دروزة، المصدر نفسه، ص ٥٧١.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٥٨٠.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٥٩٩.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٦٠٠.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٦٠٢.

(١١٠) المصدر نفسه.

(١١١) محمد عزة دروزة، مخطوط بعنوان الجزء الواحد والعشرون من المذكرات أو «في سبيل القضية الفلسطينية والوحدة العربية ومن وحي النكبة وفي سبيل معالجتها»، مج ٢، ص ١١.

(١١٢) المصدر نفسه، مج ٢، حول مقاطعة شكري القوتلي، ص ٥، واتحاد سورية ـ العراق، وسورية ـ مصر، ص ١ ـ ٢٥.

(١١٣) دروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ١٥٥.

(١١٤) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(١١٥) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(١١٦) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(١١٧) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٦٢٣.

(١١٨) دروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ١٦٤.

(١١٩) المصدر نفسه، ص ١٦٥ .

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ١٦٤ .

(١٢١) المصدر نفسه، ص ١٤٨ .

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٩ .

(١٢٣) دروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و١٨٨٧ ـ ١٩٨٤** .

(١٢٤) محمد عزة دروزة، «قصة غزو فلسطين: من قبل بني إسرائيل واليهود قديماً وحديثاً،» **مجلة الوعي الإسلامي**، العدد ٦٧ (١٣٩٠هـ)، الملحق ص ٣٣ .

(١٢٥) دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات**، ج ١، ص ٢٣ .

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٥ .

(١٢٧) محمد عزة دروزة، **في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة ولأجل معالجتها: رسائل ومقالات وبحوث ومقابلات وتعقيبات، بيروت، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٢** (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٣) .

(١٢٨) المصدر نفسه .

(١٢٩) دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات**، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٠٩ .

(١٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(١٣٢) دروزة، النبذة التي أشرنا إليها سابقاً، (ص ٢٢)، والمصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٨ .

(١٣٣) دروزة، **في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة ولأجل معالجتها: رسائل ومقالات وبحوث ومقابلات وتعقيبات**، بيروت، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٢، ص ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، و ٢٨٤ .